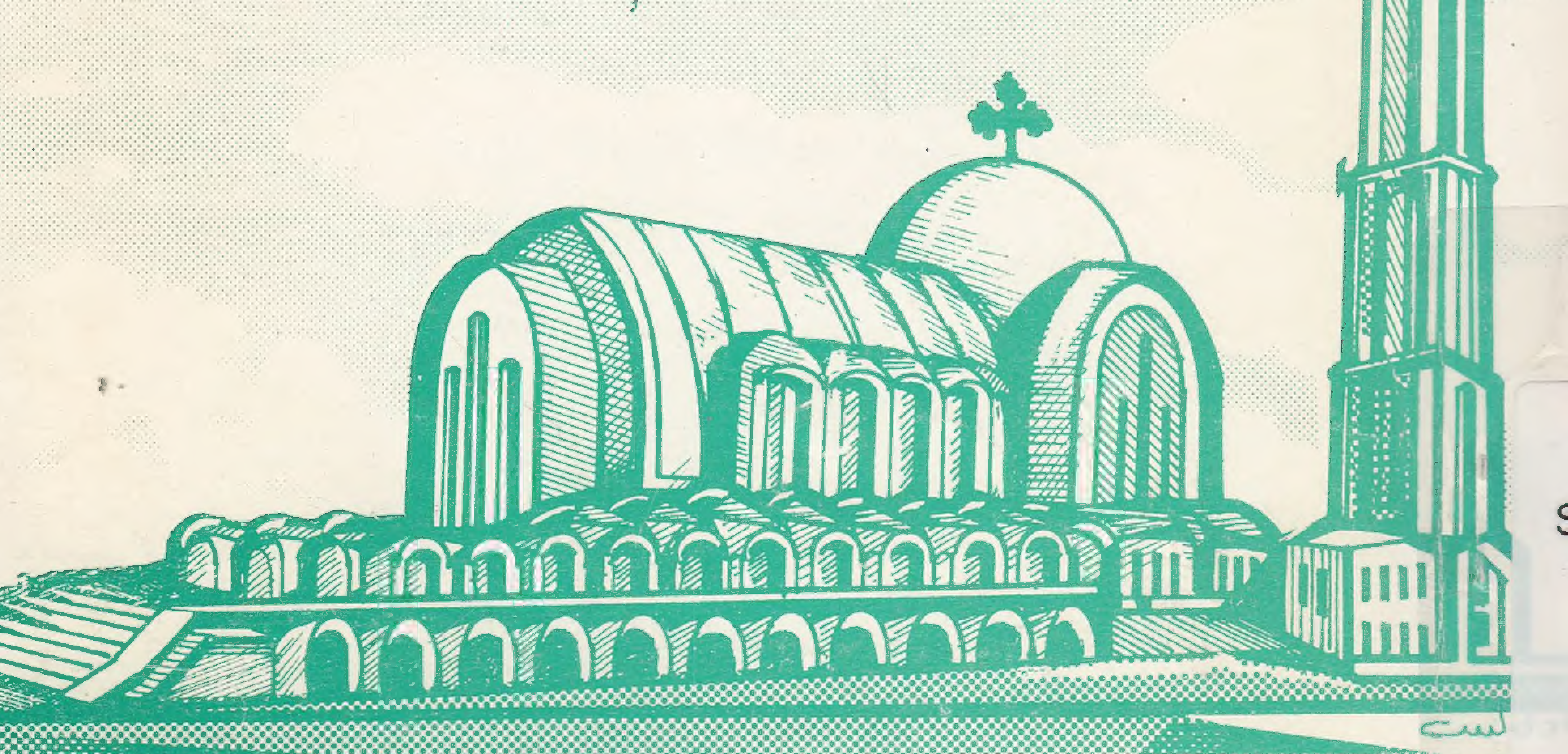
البابا شنوده الثالث

الوسائط الروحية



البابا شنوده الثالث



The Spiritual Means

by H.H. Pope Shenouda III

2nd . Print

Aug . 1994

Cairo

الطبعة الثانية

أغسطس ١٩٩٤

القاهرة

الكتاب : سلسلة الوسائط الروحية .
المؤلف : قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث .
الناشر : الكلية الإكليريكية .
الطبعة : الثانية ١٩٩٤
المطبعة : الأنبا رويس الأوفست - العباسية - القاهرة .
رقم الإيداع بدار الكتب : ٩٢/٥٣٠١ .
I.S.B.N. 977 - 5345 - 00 - 6 .



قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٧)

مقدمـة

الروح القدس يقود أبناء الله فى حياتهم الروحية (رو٨: ١٤).

وهو يقودهم من خلال وسائط معينة، إن سلكوا فيها يشتركون مع الروح القدس فى العمل، أو يدخلون فى شركة الروح القدس (٢كو١٣: ١٤).

ونسمى هذه الوسائط : الوسائط الروحية، أو وسائط النعمة، أى الوسائط التى تعمل النعمة من خلالها، أو تعمل بها ...

وقد حدثتك فى هذا الكتاب عن ١١ واسطة من الوسائط الروحية، وهى :

الصلاة، الكتاب المقدس، قراءة سير القديسين، التأمل، التداريب الروحية، محاسبة النفس، الاعتراف، التناول، الصوم، العطاء، الخدمة ...

وهذه الوسائط لازمة لكل إنسان .

مهما ارتفع هذا الإنسان فى حياته الروحية، فإنه لن يستغنى عنها. فهى غذاؤه الروحى الدائم. وإن بعد عنها، أو قصر فى ممارستها، فإن حرارته الروحية تفتر، ويعرض نفسه لمحاربات خطيرة...

ومواد هذا الكتاب ثمرة لمحاضرات القيناها منذ الستينات .

سواء فى القاهرة أو الاسكندرية أو دمنهور، ونشرت أجزاء منها فى مجلة الكرازة، وفى جريدة وطنى. وقد جمعناها كلها لتصدر فى كتاب ...

ولاشك أن كل باب منها، يمكن أن يصدر فيه كتاب. ولكننا أردنا أن نقدم لك كل هذه الموضوعات مركزة .

حاول أن تتخذ كل هذه الموضوعات مجالاً للتدريب العملى .

وليكن الرب معك، يقتاد خطواتك إليه .

نوفمبر ١٩٩٢ — **البابا شنوده الثالث**

الفهرس المجمل

الفهرست المفصل من ص ١٥٨ إلى ص ١٦٠ .


الباب الأول
الصّلاة
ما هي؟
وكيف تكون؟

الصـلاة

ما هى ؟ وكيف توصّل إلى اللـه ؟

ليست كل صلاة تعتبر واسطة روحية ، يمكن أن توصلك إلى الله ... هنا وأتذكر ما قيل عن إيليا النبى إنه «صلى صلاة» (يع ٥ : ١٧) كانت صلاة حقيقية ، استطاعت أن تغلق السماء وأن تفتحها ، وأن تقتدر كثيراً فى فعلها (يع ٥ : ١٦) .

فما هى الصلاة إذن ؟ ما تعريفها ؟

الصلاة هى جسر يوصل بين الإنسان والله . شبهوها بسلّم يعقوب الواصل بين السماء والأرض (تك ٢٨ : ١٢) . إنها ليست مجرد كلام ، إنما هى صلة ... هى صلتك بالله ، قلباً وفكراً ..

* * *

الصلاة هى إحساسك بالوجود فى الحضرة الإلهية .

وبدون هذا الإحساس لا تكون الصلاة صلاة ... هى مشاعر قلب متجة إلى الله ، يشعر بوجود الله معه ، أو بأنه واقف أمام الله . كما قال إيليا النبى «حىّ هو رب الجنود ، الذى أنا واقف أمامه» (١مل ١٨ : ١٥) ... وأمام الله ينسى الإنسان كل شىء ، ولا يبقى فى ذهنه سوى الله وحده . ويتضاءل كل شىء . ويصبح الله هو الكل فى الكل وليس غيره ...

* * *

الصلاة هى عمل القلب ، سواء عبّر عنها اللسان أو لم يعبر.

هى رفع القلب إلى الله . لأن القلب يتحدث مع الله بالشعور والعاطفة ، أكثر مما

يتحدث اللسان بالكلام . وربما يرتفع القلب إلى الله بدون كلام .

لذلك فإن تنهد القلب أمام الله صلاة . وحنين القلب إلى الله صلاة . وعواطف الحب نحو الله صلاة . فالصلاة هى الصلة بين الله والإنسان . وإن لم توجد هذه الصلة القلبية ، فلن ينفع الكلام شيئاً .

* * *

إن أحببت الله تصلى . وإن صليت تزداد حباً لله. فالصلاة هى عاطفة حب ، نعبر عنها بالكلام .

نرى هذا الحب وهذه العاطفة بكل وضوح فى مزامير داود إذ يقول :

« يا الله أنت إلهى ، إليك أبكر. عطشت نفسى إليك » (مز٦٣ : ١) . « كما يشتاق الأيل إلى جداول المياه ، هكذا تشتاق نفسى إليك يا الله . عطشت نفسى إلى الله ، إلى الإله الحى . متى أجىء وأتراءى قدام الله » (مز٤٢ : ١، ٢) ... إنه شوق إلى الله ، عطش إليك . كما تشتاق الأرض العطشانة إلى الماء ...

كثيرون يصلون ، ولا يشعرون بتعزية . لأن صلواتهم خالية من الحب ... مجرد كلام !

هؤلاء رفض الله صلواتهم . وقال عنهم « هذا الشعب يكرمنى بشفتيه . أما قلبه فمبتعد عنى بعيداً » (أش ٢٩ : ١٣) . وكرر السيد المسيح نفس التوبيخ بالنسبة إلى اليهود (مت ١٥ : ٨) (مر٧ : ٦) .

إذن اخلط صلاتك بالحب . وتكلم فيها مع الرب بعاطفة . فالصلاة هى اشتياق النفس إلى الوجود فى حضرة الله . هى اشتياق المحدود إلى غير المحدود ، اشتياق المخلوق إلى خالقه ، واشتياق الروح إلى مصدرها وإلى شبعها ...

* * *

والصلاة المقبولة هى التى تصدر من قلب نقى .

فالكتاب يقول « ذبيحة الأشرار مكرهة الرب ، وصلاة المستقيمين مرضاته » (أم ١٥ : ٨) (أم ٢١ : ٢٧) . وقد رفض الرب صلاة الأشرار، فقال لهم « حين تبسطون أيديكم ، أستر وجهى عنكم . وإن أكثرتم الصلاة ، لا أسمع . أيديكم ملآنة

دماً » (أش ۱ : ١٥) . ومن الناحية الأخرى يقول الكتاب « طلبة البار تقتدر كثيراً فى فعلها » (يع ٥ : ١٦) .

إذن ماذا يفعل الخاطىء المثقل بآثامه ؟

يصلى ليساعده الله على التوبة . ويتوب لكى يقبل الله صلاته ...

يصلى ويقول : توبنى يارب فأتوب » أر ٣١ : ١٨) . فالصلاة هى باب المعونة ، الذى يدخل منه الخاطىء إلى التوبة . وقد قال ماراسحق « من قال إن هناك باباً آخر للتوبة غير الصلاة ، فهو مخدوع من الشياطين » ... إذن لا تنتظر حتى تتوب ثم تصلى !! إنما أطلب التوبة فى صلاتك ، من ذلك الذى قال « بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥) .

* * *

الصلاة هى فتح القلب لله ، لكى يدخل ويطهره .

تذكرنا بصلاة العشار ، الذى رفع قلبه فى انسحاق أمام الله ، طالباً الرحمة (لو ١٨ : ١٣) . وهكذا خرج مبرراً . عليك إذن أن تصلى لكى تحصل على نقاوة القلب ، وأنت تقول للرب فى صلواتك : إنضح علىَّ بزوفاك فأطهر ، واغسلنى فأبيض أكثر من الثلج (مز ٥٠) ... أليس هو القائل « أعطيكم قلباً جديداً ، وأجعل روحاً جديدة فى داخلكم ... وأجعل روحى فى داخلكم ، وأجعلكم تسلكون فى فرائضى » (حز ٣٦ : ٢٦ ، ٢٧) ... اطلب منه فى صلاتك تحقيق هذا الوعد .

* * *

الصلاة هى تدشين للشفتين وللفكر ، وهى تقديس للنفس ، بل هى صلح مع الله ...

الإنسان الذى بينه وبين الله خصومة ، طبيعى أنه لا يتحدث معه . لا يصلى . لا يجد دالة للحديث مع الله . فإن بدأ يصلى ، فمعنى هذا أنه يريد أن يصطلح مع الله ... وإذا صلى ، يستحى من حديثه مع الله ، ويخجل من أن ينجس فكره الذى كان مع الله منذ حين . يصل إذن إلى استحياء الفكر ، وهذه ظاهرة روحية صحية .

وهكذا بالصلاة تبطل الأفكار الردية ، كلما داوم الإنسان على الصلاة ، ويدخل بها فى جو روحى ، ويبعد عن قوات الظلمة .

الصلاة هي رعب الشياطين ، وأقوى سلاح ضدهم .

فالشيطان يخشى أن يفلت هذا المصلى من يده . يخشى أن ينال بصلاته قوة يحارب بها . كما أنه يحسده على علاقته هذه مع الله ، التى حُرم هو منها ... لذلك فالشيطان يحارب الصلاة بكل الطرق . يحاول أن يمنعها بأن يوحى للإنسان بأن مشاغل كثيرة تنتظره وليس لديه وقت ، أو يشعره بالتعب و بثقل فى الجسد . وإن أصر على الصلاة ، يحاول أن يشتت فكره ليسرح فى أمور عديدة ...

* * *

أما أنت يا رجل الله ، فاصمد فى صلاتك مهما كانت الحروب . وركز فيها فكرك وكل مشاعرك ...

وكما قال الرسول «قاوموا ابليس فيهرب منكم» (يع ٤ : ٧) . ولا تستسلم لأفكاره . واعرف أن محاولته منع صلاتك ، إنما تحمل اعترافاً ضمنياً منه بقوة هذه الصلاة كسلاح ضده . فلا تلقِ سلاحك ، بل حارب به . واستمر فى الصلاة مهما شردت أفكارك . ولابد أن ييأس العدو من جهادك الروحى و يتركك . كما أن النعمة لن تتخلى عنك ، بل ستكون معك ...

* * *

وفى صلاتك ، افتح أعماق نفسك لتمتلىء من الله .

اطلب الله نفسه ، وليس مجرد خيراته . قل له كما سبق أن قال داود «طلبت وجهك ، ولوجهك يارب التمس . لا تحجب وجهك عنى» (مز١١٩) . تأكد أن نفسك التى تشعر بنقصها ، ستظل فى فراغ إلى أن يكملها الله نفسه . إنها تحتاج إلى حب أقوى من كل شهوات العالم . وهى عطشانة ، وماء العالم لا يستطيع أن يرويها (يو٤ : ١٣) .

قل له يارب : لست أجد سواك كائناً يفهمنى .

واطمئن إليه : افتح له قلبى ، وأحكى له كل أسرارى ، وأشرح له ضعفاتى فيسمعها ولا يحتقرها . وأسكب أمامه دموعى ، وأبثه أشواقى . أشعر معه أننى لست وحدى ، وإنما معى قلب يحتوينى وقوة تسندنى ... بدونك يارب ، أشعر أننى فى فراغ ،

ولا أرى لى وجوداً حقيقياً . أنت هو عمانوئيل ، الله معنا ... روحى تشتاق إلى روحك الكلى ، تشتاق إلى ما هو أسمى من المادة والعالم وكل ما فيه ... نعم ، إن فى داخلى اشتياقاً إلى غير المحدود ، لا يشبعه سواك ...

* * *

هذه هى صلاة الحب ، وهى أعلى من مستوى الطلب . فأنت قد تصلى ولا تطلب شيئاً ...

قد تكون صلاتك شكراً على ما أعطاه لك الله من قبل . تشكره على عنايته بك ، ورعايته لك ، وعلى ستره ومعونته وكل إحساناته ، لك ولكل أصحابك وأحبابك ... وقد تكون صلاتك تسبيحاً لله ، مثل صلاة السارافيم « قدوس قدوس قدوس ، رب الجنود . السماء والأرض مملوءتان من مجدك وكرامتك » (أش ٦) .

قد تكون صلاتك مجرد تأمل فى صفات الله الجميلة ، كما فى صلوات القداس الغريغورى ، وكما فى كثير من المزامير وصلوات الساعات . وكما قال القديس باسيليوس الكبير « لا تبدأ صلاتك بالطلب لئلا يظن أنه لولا الطلب ما كنت تصلى .

* * *

اعتبر صلاتك مجرد تلذذ بعشرة الله ، أو كما يسميها بعض الآباء « مذاقة الملكوت » .

مجرد وجودك فى حضرة الله متعة ، حتى لو لم تفتح فمك بكلمة واحدة ، حتى لو لم يتحرك ذهنك بأى فكر ، كطفل فى حضن أبيه ولا يطلب شيئاً سوى أن يبقى هكذا ...

تُرى ما الذى يمكننا أن نطلبه فى ملكوت السموات ؟! لا شىء طبعاً . لأن هناك لا ينقصنا شىء حتى نطلبه . إنما نتمتع بما قال عنه المرتل « ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب » (مز ٣٤ : ٨) . الصلاة هى مذاقة الملكوت هذا . نذوق هنا على الأرض ما سوف نتمتع به فى السماء ...

* * *

لذلك قيل عن الصلاة إنها طعام الملائكة .

هى طعام أرواحهم ، وهى غذاؤهم الذى يشبعهم . وهكذا أيضاً بالنسبة إلى أرواح

القديسين ، وكانت على الأرض غذاء للآباء المتوحدين والسواح ..و يتغذون بيها بمحبة الله وعشرته ، ومتعة أرواحهم به . كما قال داود النبى للرب «أما أنا فخير لى الالتصاق بالرب» (مز٧٣ : ٢٨).

* * *

مبارك هو إلهنا الطيب الذى منحنا أن نصلى. تواضع منه أن يسمح لنا بأن نتحدث إليه .

وتواضع منه أن يصغى إلينا... من نحن التراب والرماد، حتى نقترب إلى الله ، ونقف أمامه ونتحدث إليه ... ونضم أنفسنا إلى صفوف الملائكة الواقفة أمام عرشه تسبحه وتبارك اسمه، وتتبارك بالوجود فى حضرته . حقاً إنه تواضع من الخالق ، أن يسمح لنا نحن مخلوقاته بهذه الدالة : أن نكلمه و يسمعنا .

لذلك عار كبير ، وخطية كبرى ، أن تقول : ليس لدى وقت للصلاة ... !!

هل يجرؤ العبد أن يقول إنه ليس لديه وقت للكلام مع سيده ؟! عجيب بالأكثر أن المخلوق ليس لديه وقت للحديث مع خالقه !! إن أموراً عديدة وتافهة تجد لها وقتاً... ومحادثات لا قيمة لها، تجد لها وقتاً. لماذا إذن تحتج بضيق الوقت فى الحديث مع الله ؟!

إن داود النبى كان ملكاً وقائداً وقاضياً للشعب ، وله أسرة كبيرة ، ومع ذلك يقول للرب «سبع مرات فى النهار سبحت على أحكام عدلك» (مز١١٩) «عشية و باكر ووقت الظهر» «وفى نصف الليل نهضت لأشكرك...» «وسبقت عيناى وقت السحر، لأتلو فى جميع أقوالك» (مز١١٩).

المشكلة لا تكمن إذن فى الوقت ، وإنما فى الرغبة . إن كانت لديك رغبة فى الصلاة ، فلا شك ستجد وقتاً.

* * *

ثم يجب أن تعرف أن الصلاة بركة لك. وأنك فيها تأخذ ، ولست تعطى .

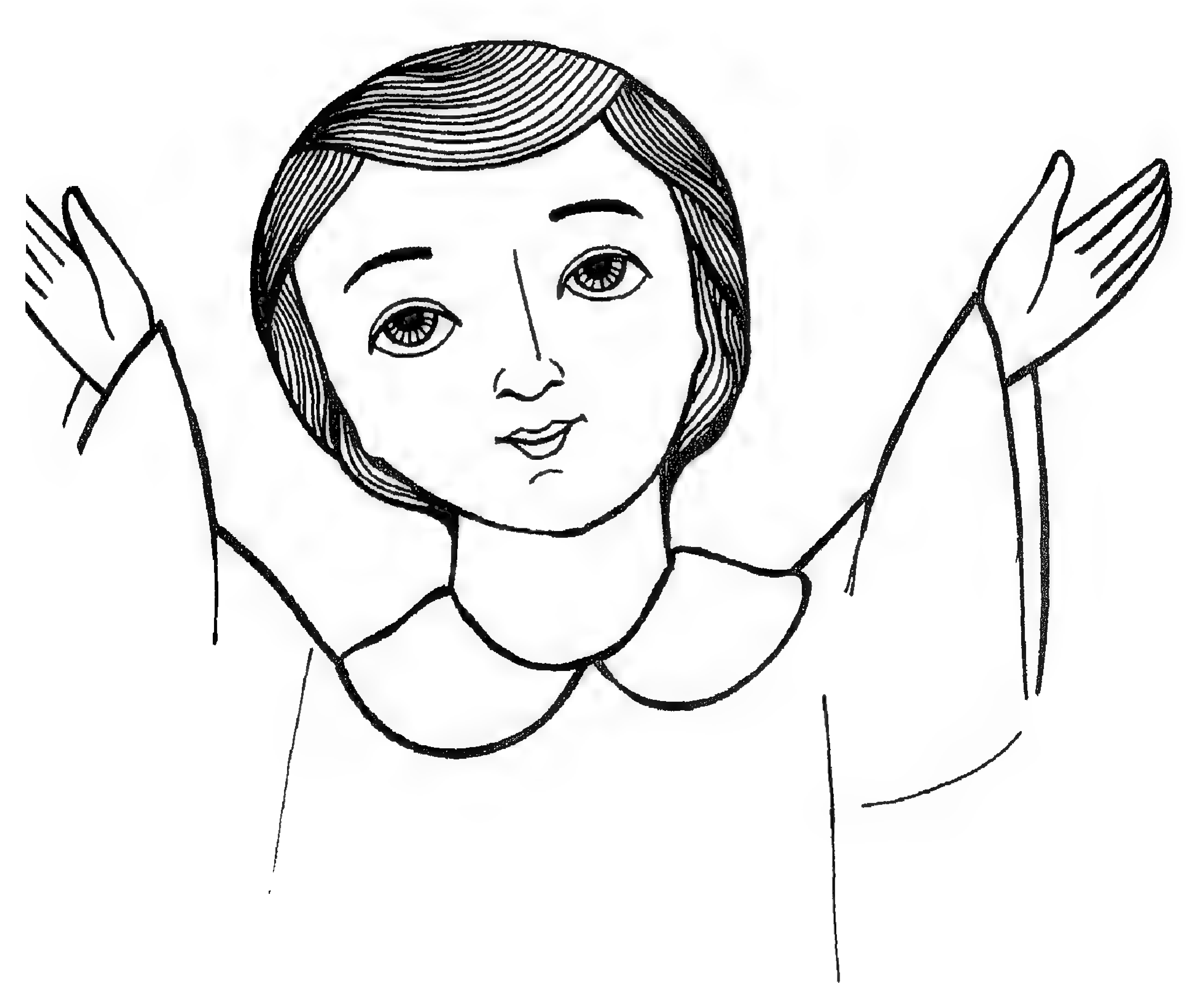
هل تظن أنك تعطى الله وقتاً حينما تصلى ؟! وهل الله محتاج إليك أو إلى صلواتك ؟! أم أنت تأخذ فى الصلاة قوة ومعونة و بركة، وتأخذ لذة روحية ومتعة بعشرة الله ، وحلاً لمشاكلك .. ؟!

يجب أن تتغير فكرتك عن الصلاة ، لكى تدرك تماماً أنك ضائع بدونها ، وأنها عكازك الذى تستند إليه .

إن عرفت هذا ، ستعتمد عليها كواسطة روحية أساسية فى حياتك .

وبعد ، أتراني استطيع فى هذا المقال أن أحدثك عن كل ما يتعلق بالصلاة ؟!

كلا ، وإنما بعد كل هذا أتركك لتصلى ، ولكى تذكرنى أيضاً فى صلاتك ...



شروط الصلاة المقبولة وتداريب على الصلاة

ليست كل صلاة مقبولة ، لأنه ليست كل صلاة ، صلاة .

فصلاة الفريسى المتكبر ، لم تكن مقبولة مثل صلاة العشار المنسحق ، الذى خرج مبرراً دون ذاك (لو١٨ : ١٤) . كذلك صلاة الذين أيديهم ملآنة دماً ، قال عنها الرب «حين تبسطون أيديكم ، أستر وجهى عنكم ، وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع» (أش١ : ١٥) . وأيضاً صلاة المرائين (مت٦) ، والذين لعلة يطيلون صلواتهم (مت٢٣ : ١٤) .

فقد تصلى صلاة ، فيتقدم واحد من الأربعة والعشرين قسيساً ، ويأخذها فى مجمرته الذهبية ، ويقدمها إلى الله رائحة بخور... (رؤ٥ : ٨) بينما يصلى آخر طول النهار ، ويتعجب الملائكة أن شيئاً من صلوات هذا الإنسان لم يصعد إلى فوق !

* * *

فما هى إذن شروط الصلاة المقبولة ؟!

الشروط كثيرة : نذكر منها أنها تكون بالروح ، فيها روح الإنسان يخاطب روح الله ، وقلبه يتصل بقلب الله ، هذه الصلاة التى من الروح ومن القلب ، هى التى تفتح أبواب السماء ، وتدخل إلى حضرة الله ، وتكلمه بدالة ، وتتمتع به ، وتأخذ منه ما تريد... بل هذه الصلاة هى التى تشبع الروح ، كما قال المرتل :

« باسمك أرفع يدىّ ، فتشبع نفسى كما من شحم ودسم » (مز٦٣ : ٤ ، ٥) .

هذه الصلاة التى من القلب ، هى التى يشعر فيها الإنسان بلقائه مع الله . ففيها إما أن نصعد إليه ، أو ينزل هو إلينا . المهم أن نلتقى . أو هو الروح القدس يصعدنا فكراً وقلباً إلى الله . وعن هذه الصلاة يقول القديسون إنها حلول السماء فى النفس ، أو أن النفس تتحول إلى سماء . وهنا تتميز الصلاة بحرارة روحية .

★ ★ ★

الصلاة التى بحب وعاطفة ، تكون صلاة حارة .

الصلاة التى بالروح ، تكون حارة بطبيعتها . أشعلها الروح النارى . ولذلك قيل عن صلاة القديس مكسيموس ودوماديوس إنها كانت تخرج من أفواههم كشعاع من نار . وهكذا كانت أصابع القديس الأنبا شنوده رئيس المتوحدين حينما كان يرفع يديه فى صلاته ...

★ ★ ★

الصلاة الروحانية تكون أيضاً بفهم وتركيز .

وبالتركيز تبعد عنها طياشة الفكر . كذلك عنصر الفهم يجعل الذهن مركزاً ، والعاطفة أيضاً تركز الفكر . أما الذى يصلى بدون قلب ، وبدون فهم ، وبدون عاطفة ، فبالضرورة تشرد أفكاره فى موضوعات متعددة ، لأن قلبه لم يتخلص بعد من الاهتمام بهذه العالميات ، ولا يزال متعلقاً بها حتى وقت الصلاة . فلا تكون صلاته طاهرة ، لأنها ملتصقة بماديات العالم .

لهذا ، عندما سئل القديس يوحنا الأسيوطى « ما هى الصلاة الطاهرة ؟ » أجاب « هى الموت عن العالم » لأنه حينما يموت القلب عن أمور العالم ، لا يسرح فيها أثناء صلاته ، فتصبح صلاته طاهرة بلا طيش .

★ ★ ★

الصلاة الروحانية تكون أيضاً بخشوع أمام الله .

لقد سبق فتحدثنا عن الصلاة بحب ، ولكن الحب لا يمنع الخشوع إطلاقاً . محبتنا لله لا يمكن أن تنسينا هيبته ، وجلاله ووقاره . فيمتزج حديثنا معه بالاحترام والتوقير ، وندرك أدب الحديث مع الله . وخشوعنا ليس هو خوف العبيد ، إنما هو توقير الأبناء

لأ بيهم وأى أب؟ إنه ليس أباً على الأرض، بل هو أبونا الذى فى السموات، الذى تقف أمامه الملائكة فى هيبة «بجناحين يغطون وجوههم. وباثنين يغطون أرجلهم» (أش ٦ : ٢). لهذا قال ماراسحق :

« إذا وقفت لتصلى ، كن كمن هو قائم أمام لهيب نار».

وابراهيم أبو الآباء والأنبياء قال «عزمت أن أكلم المولى، وأنا تراب ورماد» (تك ١٨ : ٢٧). لذلك إن وقفت أمام الله، قل له : من أنا يارب حتى أقف أمامك، أنت الذى تقف أمامك الملائكة ورؤساء الملائكة والشاروبيم والسارافيم، وكل الجمع غير المحصى الذى للقوات السمائية. كيف أحشر نفسى وسط هذه الطغمات النورانية ؟!

★ ★ ★

خشوعك أمام الله هو خشوع الروح وخشوع الجسد أيضاً .

أما عن خشوع الجسد. فيشمل الوقوف والركوع والسجود، بحيث لا تقف وقفة متراخية ولا متكاسلة، ولا تستسلم للشيطان الذى يحاول أن يشعرك فى وقت الصلاة بتعب الجسد أو بمرضه أو إنهاكه أو حاجته إلى النوم ... !

هناك اشخاص، إذا وقفوا للصلاة يشعرون بالتعب، بينما يقفون مع أصدقائهم بالساعات دون شعور بالتعب ! لذلك احترس من هذا التعب الوهمى، الذى هو من حروب الشياطين. قال القديس باسيليوس الكبير:

« لا تعتذر عن الصلاة بالمرض ، لأن الصلاة وسيلة للشفاء من المرض » .

وكما قال ماراسحق « إذا بدأت الصلاة الطاهرة، فاستعد لكل ما يأتى عليك» أى استعد لحروب الشيطان الذى يريد أن يمنعك عن الصلاة.

خشوع الجسد لازم ، لأن الجسد يشترك مع الروح فى مشاعرها ، ويعبر عنها . فخشوع الروح يعبر عنه خشوع الجسد. وتراخى الروح وعدم اهتمامها، يظهر كذلك فى حركات الجسد، مثل انشغال الحواس بشىء آخر أثناء الصلاة ! سواء النظر أو السمع وما إلى ذلك...

أما عن خشوع الروح ، فيجب أن تصلى بقلب منسحق .

وتذكر أن الرب قريب من المنسحقين بقلوبهم ... لا تنسَ أنك طبيعة ترابية ، وأنك تكلم خالقك الذى هو ملك الملوك ورب الأرباب (رؤ١٩ : ١٦) . ولا تنسَ أيضاً خطاياك التى أحزنت بها روح الله القدوس ، وخنت محبته وقابلت احساناته بالجحود . لذلك قف بانسحاق قدامه ، كما صلى دانيال النبى وقال « لك يا سيد البر . أما لنا فخزى الوجوه ... لأننا أخطأنا إليك . تمردنا عليك » (دا ٩ : ٧- ٩) .

قل له : أنا لا أستحق شيئاً . ولكن مع كثرة خطاياى وجحودى ، يشجعنى طول أناتك ، ويعزينى قلبك الواسع . أنت الإله الطيب ، الذى لا يشاء موت الخاطىء مثلما يرجع ويحيا (حز١٨ : ٢٣ ، ٣٢) . فىّ أنا الساقط تظهر عظمة مراحمك .

* * *

ولتكن صلاتك بإيمان ...

تؤمن أن الله يسمعك ويحبك ، ويستجيب لك فى كل ما يراه خيراً لك . وقد قال السيد الرب « كل ما تطلبونه فى الصلاة مؤمنين ، تنالونه » (مت ٢١ : ٢٣) . وإن لم يكن لك هذا الإيمان ، فاطلبه فى صلاتك . كما قال أبو ذلك المريض المصروع للرب « أؤمن يا سيد . فأعن عدم إيمانى » (مر٩ : ٢٤)- أو كما قال الرسول للرب : زد إيماننا (لو١٧ : ٥) . تذكر ذلك الوعد الجميل « كل شىء مستطاع للمؤمن » (مر٩ : ٢٣) .

ثق أن الإيمان يعطى الصلاة قوة . وأيضاً الصلاة تقوى الإيمان.. غير أنك إن طلبت طلباً لا تتعجل نواله . وإنما انتظر الرب . آمن أنه سوف يستجيب ، مهما بدا لك أنه أبطأ فى استجابته . استمع إلى داود النبى وهو يقول « انتظر الرب . ليتشدد ويتشجع قلبك ، وانتظر الرب » (مز٢٧ : ١٣) .

* * *

لتكن صلاتك أيضاً بعمق وبفهم .

كلما كانت صلاتك بفهم ، وتقصد كل كلمة تقولها ، فإنها حينئذ ستكون بعمق . إن المرتل يصرخ فى المزمور ويقول « من الأعماق صرخت إليك يارب . يارب

استمع صوتى» (مز ١٣٠: ١). «من عمق قلبى طلبتك» (مز١١٩). صلّ إذن من عمق قلبك، ومن عمق فكرك، ومن عمق إيمانك، ومن عمق احتياجك... وعمق الصلاة يمنحها حرارة...

تداريب على الصلاة:

١ - تدرب على إطالة الوقت فى الوجود مع الله.

ما أجمل قول المرتل فى المزمور «محبوب هو اسمك يارب، فهو طول النهار تلاوتى» (مز١١٩). فاسأل أنت نفسك كم من الوقت تقضيه مع الله؟ لاشك أنك تقضى أوقاتاً كثيرة فى أحاديث وفى ترفيهات لا تفيدك شيئاً... وكلها وقت ضائع. فياليتك تخصص وقتاً أطول للحديث مع الله. ولا تجعل هذه الأوقات فى نهاية مشغولياتك، بل فى قمة مشغولياتك.

* * *

٢ - تدريب على الاستيقاظ المبكر، وبدء اليوم بالصلاة.

حيث يكون القلب صافياً، ولم يزدحم بعد بأفكار العمل وسائر المسئوليات. و يكون البيت هادئاً، لم يستيقظ أهله بعد ولم تدركه الضوضاء. فتخلو مع الله بدون معطل، و يكون الله هو أول من تتحدث إليه فى يومك، وتأخذ منه بركة لليوم كله...

* * *

٣ - إهتم بصلوات الساعات فى الأجبية:

وإن لم تستطع خلال النهار أن تصلى كل ساعة بكمالها. فعلى الأقل يمكنك أن تصلى القطع والتحليل الخاص بها. وثق أن ذلك سوف لا يستغرق منك سوى دقائق معدودة ترفع فيها قلبك إلى الله خلال حروب النهار ومشغولياته.

و ينفعك فى ذلك: الحفظ، فكلما كنت تحفظ قطع ومزامير الأجبية، ستصليها بدون كتاب و بدون أن يشعر بك أحد...

* * *

٤ ـ حاول أن تمارس الصلاة فى كل مكان .

مطيعاً قول الكتاب «صلوا كل حين» (لو١٨: ١) . «صلوا بلا انقطاع» (١تس٥: ١٧)... تدرب على الصلاة فى الطريق ، حتى لا تنشغل بمناظره . تدرب على الصلاة وأنت مع الناس ، وبخاصة إن كانت أحاديثهم معثرة أو لا تعنيك . تدرب على الصلاة وأنت فى طرق المواصلات ، لكى تستفيد من الوقت ... يمكنك أيضاً أن تصلى فى دخولك إلى بيتك ، وفى خروجك منه . وكذلك فى دخولك إلى مكان عملك ، وفى خروجك ... وأيضاً فى كل مقابلة ليعطيك الرب نعمة وتوفيقاً .

* * *

٥ ـ تدرب على الصلوات القصيرة المتكررة :

مثل صلاة « يارب يسوع المسيح ارحمنى » أو « اللهم التفت إلى معونتى . يارب اسرع وأعنى » أو « أحبك يارب يسوع المسيح وأبارك اسمك » أو « أشكرك يارب على كل حال » ... أو أية آية صلاة تركّبها من نفسك ، وتكون مناسبة لحالك ومعبرة عن مشاعرك ... وكثرة ترداد الصلاة تجعلها تلصق بعقلك الباطن ، بحيث يدور بها فكرك تلقائياً ، ويمكن أن تبقى معك حتى فى نومك . ولعله ينطبق على هذا قول المرتل « كنت أذكرك على فراشى » .

* * *

٦ ـ تدرب على الصلاة من أجل الآخرين .

تدرب على الصلاة من أجل كل الذين هم فى حاجة . من أجل أقربائك وأصحابك وزملائك ... من أجل الكنيسة بوجه عام ، وكنيستك المحلية بوجه خاص ، ومن أجل الخدمة ... صلاة أخرى من أجل المرضى والراقدين ، ومن أجل المحتاجين إلى توبة . صلاة من أجل العالم والوطن ... وتتدرج فى الطلبة لأجل الآخرين إلى أن تصلى من أجل أعدائك ومقاوميك .

* * *

٧ ـ تدرب أن تدخل الله فى كل موضوع وكل مشكلة .

فلا تقف وحدك فى كل مشاكلك ، ولا تعتمد فى حلها على ذكائك وحده أو مجرد

معونة الآخرين. إنما أشعر بأنك لا تستغنى عن الله فى كل ما يعرض لك. وثق أن الصلاة ستجلب لك الشعور بالأمن والاطمئنان والسلام الداخلى. وثق أن مشاكلك قد تسلمتها يد أمينة قوية، يمكنها أن تدبر أمورك كلها.

عندما تصلى من أجل مشكلة، إما أن يحلها الله وتنتهى، أو إن بقيت، يعطيك سلاماً قلبياً من جهتها.

وهذا هو أيضاً لون من حل المشكلة.

فالمشكلة موجودة، ولكنك غير متضايق منها وغير مضطرب، وكأنك لا تشعر بوجودها. وأصبحت لا تعتبرها إشكالاً أو منغصاً ... إنها فاعلية الصلاة.

★ ★ ★

٨ ـ تدرب على الصلوات الخاصة، بالاضافة إلى الصلوات الطقسية.

الصلاة التى تكلم فيها الله بكل صراحة، وتكشف له كل ما فى قلبك. لا مانع أن تقول له «أنا يارب أحبك. ولكنى أشعر أننى أحب أموراً أخرى فى العالم تعطلنى عنك. وكلما حاولت أن أنزعها من قلبى، أجد نفسى ضعيفاً أمامك. وأنا أعرف أن «محبة العالم عداوة لله» (يع ٤ : ٤). لذلك أعطنى يارب أن أحبك المحبة الكاملة. وأنقذنى بقوتك من كل محبة ضد محبتك.

لا تكن صلاتك مجرد عبارات منمقة مختارة منتقاة. بل لتكن كلمات صريحة نابعة من قلبك، بلا تكلف ولا تصنع ... تعبر عن حالتك ومشاعرك، بقلب مفتوح ... واحذر من أن تكون صلاتك مجرد روتين.

★ ★ ★

٩ ـ لكى تكون صلاتك بفهم، تدرب على التأمل فى صلوات المزامير والأجبية وكل الصلوات المحفوظة.

فكلما تغوص فى معانى هذه الصلوات، ستجد لها عمقاً يصحبك فى وقت الصلاة بها. بل ستتعلم أسلوب التخاطب مع الله. كما قال التلاميذ للرب «علمنا أن نصلى» (لو١١ : ٢).

★ ★ ★

١٠ ـ إن كنت لم تصل بعد إلى الصلاة الطاهرة ، فلا تمتنع عن الصلاة لهذا السبب .

فالصلاة كأية فضيلة ، يتدرج الإنسان فى الوصول إلى كمالها. وقد قال ماراسحق : إن كنت تنتظر حتى تصل إلى الصلاة الطاهرة ثم تصلى . فإلى الأ بد ما تصلى . لأن الصلاة الطاهرة نصل إليها بالصلاة ...

* * *

١١ ـ تدرب أنك تستمر فى الصلاة ، كلما أردت أن تنهيها ...

فمن علامات نجاحك فى الصلاة ، إنك لا تستطيع أن تتركها وكأنك تناجى الرب وتقول «إبقَ معى يا سيدى» وتقول مع سفر النشيد «أمسكته ولم أرخه» (نش ٣ : ٤) ... بل إن كل طلبة أو لفظة تشعر بحلاوتها ، فلا تريد تركها . كما قال أحد الآباء عن صلوات القديسين «ومن حلاوة الكلمة فى أفواههم ، ما كانوا يستطيعون تركها إلى لفظة أخرى ...» .






الباب الثاني
الكتاب المقدس

الكتاب المقدس

أهميته

مبارك هو الرب الإله ، الذى تنازل فكلمنا ، نحن التراب والرماد . ومبارك هو لأنه أمر أنبياءه القديسين أن يسجلوا لنا كلامه ، فبقى محفوظاً لنا فى الكتاب المقدس منفعة لنفوسنا ونوراً لطريقنا .

* * *

الكتاب المقدس هو كتاب الكتب أو هو الكتاب

فعندما يقال « الكتاب » فقط ، إنما يقصد به كتاب الله ، كلامه الذى يتحدث به إلينا . الذين نطق به روح الله القدس فى أفواه أنبيائه القديسين . « لأنه لم تأتِ نبوءة قط بمشيئة إنسان ، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس » (٢بط ١ : ٢١) . لذلك فإننا فى قانون الإيمان ، نقول عن الروح القدس « الناطق فى الأنبياء » . وكما يقول الرسول « كل الكتاب هو موحى به من الله ، ونافع للتعليم والتوبيخ ، للتقويم والتأديب الذى فى البر » (٢تى ٣ : ١٦) .

* * *

الكتاب المقدس هو رسالة مقدمة إليك ، ومن ذا الذى لا يفرح برسالة الله ؟!

القديس أنطونيوس الكبير وصلته رسالة ذات يوم من الامبراطور قسطنطين . ففرح تلاميذه جداً ، ولكن القديس ترك الرسالة جانباً ، فتعجب تلاميذه وتحمسوا لقراءة الرسالة . فقال لهم « لماذا تفرحون يا أولادى هكذا لرسالة وصلتنا من إنسان ؟ وهوذا الله قد أرسل لنا رسائل كثيرة فى الإنجيل المقدس ، ونحن لا نقابلها بمثل هذا الفرح

والحماس ؟! ثم بعد ذلك قرأ خطاب الامبراطور وأرسل إليه يباركه .

وأنت : إن وصلك خطاب من إنسان عزيز عليك ، ألا تفرح به ، وتقرؤه مرات ... ألا يليق بك أن تفعل هكذا برسالة تصل إليك من الله ...

* * *

رسالة الله المرسلة إليك ، التى نطق بها الروح ، وتكلم بها الأنبياء مسوقين بالروح ، هى كلمة مملوءة روحاً ، نفهمها بالروح ونحياها . هى كما قال الرب :

« الكلام الذى أكلمكم به هو روح وحياة » (يو ٦ : ٦٣) .
إنه غذاء لأرواحنا تتغذى به فيكون لها حياة ...

وكما قال الرب فى سفر التثنية (تث ٨ : ٣) ، وردده السيد المسيح « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله » (مت ٤ : ٤) . لأن الخبز هو طعام الجسد . والإنسان ليس مجرد جسد ، بل له روح . والروح تتغذى بكلام الله الذى هو فى كتابه المقدس .

ففى الكتاب المقدس غذاؤنا اليومى ، لأننا نحيا « بكل كلمة تخرج من فم الله » . إنه خبز الحياة وغذاء الروح .

ولعله بعض ما تقصده عبارة « خبزنا الذى للغد ، أعطنا اليوم » .

إن رجل الله يفرح بالكتاب ، « وفى ناموس الرب مسرته » (مز ١) وفى ناموسه يلهج نهاراً وليلاً . وعبارة « مسرته » تعنى أن وصايا الله ليست عبئاً عليه ، وليست ثقيلة ، وليست فرضاً ، إنما هى سبب فرحه ...

* * *

وعلاقته بالكتاب دائمة ومستمرة ، يلهج فيه النهار والليل .

ولا تظن أن هذه قيلت للرهبان وللعباد فقط ، بل للجميع . قالها الرب لقائد جيش مثقل بالمسئوليات ، يقود مئات الآلاف من الشعب ... ففى وصية الرب ليشوع بن نون خليفة موسى ، يقول له الرب :

« لا يبرح سفر هذه الشريعة من فمك ، بل تلهج فيه نهاراً وليلاً . لكى

تتحفظ للعمل حسب كل ما هو مكتوب فيه . لأنك حينئذ تصلح طريقك ، وحينئذ تفلح » (يش ١ : ٨) . تصوروا قائداً مشغولاً جداً كيشوع ، وعليه كل مسئوليات الحكم الضخمة : ومع ذلك يقول له الرب « لا يبرح سفر هذه الشريعة من فمك » ؟! ...

ليس هذا الكلام موجهاً إلى يشوع وحده ، بل إلى كل واحد منا . ولذلك يقول المزمور الأول عن الرجل البار إنه « **فى ناموس الرب مسرته ، وفى ناموسه يلهج نهاراً وليلاً** » **(مز ١ : ٢)** .

داود النبى كان ملكاً وقائداً ورب أسرة كبيرة وصاحب مسئوليات خطيرة . ومع ذلك يقول « ناموسك هو تلاوتى » « شريعتك هى لهجى » . و يتحدث عن علاقته بناموس الله وشريعته فيقول « سراج لرجلى كلامك ، ونور لسبيلى » ، « **فرحت بكلامك كمن وجد غنائم كثيرة** » « كلامك ألذ من العسل والشهد فى فمى » ...

من أين كان لداود وقت يتلو فيه فى كلام الله النهار والليل ، وتصبح كلمات الله هى درسه وتلاوته ولهجه ؟!

* * *

إن آباءنا القديسين كانوا يحفظون كثيراً من أسفار الكتاب عن ظهر قلب ، وكان الكتاب يظهر فى حياتهم . يا ليتنا نقيم مسابقات لحفظ آيات الكتاب . أتذكر أننى قلت مرة للناس :

« **احفظوا الانجيل ، يحفظكم الإنجيل ، احفظوا المزامير ، تحفظكم المزامير** » .

وفى حفظ الآيات يمكن أن نرددها فى داخلنا ، ونتأمل معانيها وأعماقها فى كل مكان ، فى البيت ، وفى العمل ، وفى الطريق ، ووسط الناس . وهكذا نصادق الكتاب وكلماته ، وتكون لنا نعم الرفيق ...

* * *

حفظ الآيات وترديدها وتأملها فضيلة ، والعمل بها فضيلة أعظم .

ولذلك قال السيد المسيح « من يسمع كلامى و يعمل به يشبه إنساناً بنى بيته على الصخر » . و يقول الكاهن فى أوشية الإنجيل « فلنستحق أن نسمع ونعمل بأناجيلك المقدسة » ...

عبارة « فلنستحق » هنا لها معنى عميق ، لأنه من نحن حقاً ، حتى نستحق أن نسمع كلام الله ونؤتمن على وصاياه ؟!

أحب أن أرى أناجيلكم الخاصة وقد ظهر عليها الاستعمال .

تظهر قديمة ومخططة ، وواضحة قراءتكم فيها واستعمالكم لها... كلها زكريات وتأملات ، دخلت العقل والقلب وأصبحت جزءاً من الحياة .

* * *

اقرأوا وتأملوا . اخلطوا الكتاب بأرواحكم ، وادخلوا إلى أعماقه .

لا تكتفوا بالمعنى القاموسى ... و بالتأمل ستجدون الآية الواحدة ، وكأنها بحر واسع لا حدود له ، كما قال داود :

« لكل كمال رأيت منتهى ، أما وصاياك فواسعة جداً » .

قال هذا داود ، فى وقت لم تكن أمامه سوى تسعة أسفار تقريباً ، ونحن معنا الكتاب كله ، بما فى ذلك العهد الجديد وجميع الأنبياء . وكل كلمة فيه مملوءة من العمق وكنز للتأمل .

* * *

الكتاب المقدس ليس فقط مصدر تأمل ، إنما أيضاً مصدر عزاء .

فى كل حالة من حالات الإنسان النفسية ، يجد فى آيات الكتاب ما يريح قلبه و يشبعه .

فى حزنه يجد كلمة عزاء ، وفى فرحه يجد فيه بهجته ، وفى ضيقه يجد حلاً ، وفى مشاكله يجد فيه سلاماً ، وفى يأسه يجد آيات عن الرجاء ...

الكتاب المقدس ، كلماته مؤثرة . قد تقرأ بعضها وتقول لله « لاشك يارب أنك قلت هذا الكلام من أجلى » .

* * *

لذلك خذ كلمات الله كأنها رسالة شخصية موجهة إليك .

إليك أنت بالذات ، و« من له أذنان للسمع فليسمع ، ما يقوله الروح القدس

للكنائس » . من أجلك أنت بالذات نطق الروح على أفواه الأنبياء ...

إنها رسالة أرسلها إليك أنت ، وليس إلى أهل رومية أو أهل كورنثوس . عندما أرسل الامبراطور قسطنطين رسالة إلى القديس أنطونيوس ، فرح أولاده . فقال لهم « إن الله ـ ملك الملوك ـ قد أرسل إلينا كثيراً من الرسائل ، فلماذا لم تفرحوا بها هكذا ...

* * *

الكتاب المقدس ليس مجرد رسالة عزاء ، إنما أيضاً سلاح :

كل خطية ، يمكن أن تضع أمامها وصية ، فتجد أنها قد ضعفت أمامك ، وأخذت أنت من الوصية قوة ... ما أقوى كلمة الرب ، حتى أن لفظها صغير .

« كلمة الله حية وفعالة ، وأمضى من كل سيف ذى حدين » (عب ٤ : ١٢) .

الشيطان فى التجربة على الجبل ، لم يستطع أن يحتمل كلمة الله ، ولم يستطع أن يرد على شيء منها ...

* * *

وكلمة الرب شاهدة علينا فى اليوم الأخير ، إن لم ننفذها .

لو لم نعرف ، لكان لنا عذر ، ولكن أى عذر لنا ، وهوذا كلام الله أمامنا يوضح لنا كل شيء ؟! وكلام الله لم يكن مطلقاً لمجرد المعرفة ، وإنما للحياة ... لذلك فلنعمل به ...

إن كلمة الرب ستطاردنا فى كل مكان نذهب إليه ، ترن فى آذاننا ، وتتعب ضمائرنا إن لم نعمل بها . ولن تجدينا مطلقاً تبريرات العقل الخاضع لشهوات النفس ...

* * *

وفى نفس الوقت فإن كلمة الله فى أفواهنا هى دليل على روحياتنا وعلى انتمائنا الدينى .

هناك أشخاص يتحدثون ، فتمتلىء أحاديثهم بكلام العالم . وهناك من يتحدث ، فتظهر فى كلامه لغة الكتاب . من كثرة ترداده لألفاظ الكتاب ، اعتاد أسلوبه ، وتأثر

بلغته ، لذلك « لا يبرح سفر الشريعة من فمه » . وكل من يسمعه ، يقول له « لغتك تظهرك » (مت ٢٦: ٧٣) .

فلنعود أطفالنا استخدام آيات الكتاب ، بأن يقولوا آية على كل ما يرونه : كتاب ، شجرة قلم ، أرض ، باب ، مائدة... كل ما يقع تحت بصرهم ...

الطفل الذى يتعود هذا ، تدخل لغة الكتاب فى الفاظه وحياته. لذلك لا يعرف لغة الخطاة ، ولغة العالم ، ولا يخطىء ...

* * *

قال داود « خبأت كلامك فى قلبى ، لكيلا أخطىء إليك » .

إن الكلام يجب أن يوضع فى القلب ، فى مركز العاطفة والحب والمشاعر ، وليس فقط فى الفم ، أو فى العقل فى موضع المعرفة فقط . وحينما يكون كلام الله فى القلب ، حينئذ لا نخطىء ، لأن وصية الله امتزجت بعواطفنا . ما أجمل قول الإنجيل عن مريم العذراء إنها « كانت تحفظ كل هذه الأمور متأملة بها فى قلبها » .

من ضمن الأشخاص الذين أخطأوا ، لأنهم خبأوا كلام الله فى عقولهم وليس قلوبهم ، أمنا حواء : سألتها الحية عن وصية الله ، فأجابت بحفظ وتدقيق شديد ، وفى نفس المناسبة كسرت الوصية وأخطأت .

* * *

اقرأوا الكتاب المقدس . وثقوا أنكم فى كل قراءته ستجدون شيئاً جديداً . فكلمات الله غنية ودسمة ، وهى ينبوع للتأملات لا ينضب لذلك نرى أن داود النبى إذ اختبر هذه الحقيقة يقول :

« لكل كمال رأيت منتهى ، أما وصاياك فواسعة جداً » (مز ١١٨) .

أى أن كل كمال له حدود ، أما وصية الله فلا حدود لعمقها . فكما أن الله غير محدود ، كذلك عمق كلماته غير محدودة . مهما تأملتها ، تجد أن التأملات تفتح أمامك آفاقاً لا تحد... **هى جديدة باستمرار ، جديدة على ذهنك وعلى فهمك . لهذا قال النبى « وجدت كلامك كالشهد فأكلته » .**

وفى ذلك يقول داود النبى « ناموس الرب كامل ، يرد النفس . شهادات الرب صادقة ، تصير الجاهل حكيماً . وصية الرب مستقيمة ، تفرح القلب . أمر الرب طاهر ينير العينين... أحكام الرب حق ، عادلة كلها ... أشهى من الذهب والأبريز الكثير الثمن . وأحلى من العسل وقطر الشهاد » (مز١٩) .

* * *

ثق أن كل كلمة تقرأها من الكتاب سيكون لها تأثيرها فيك وقوتها وفاعليتها دون شرح ودون وعظ .

يكفى أن تُذكر كلمة الله ، لكى يقتنع الإنسان بدون نقاش وبلا جهد كثير . يكفى أن تذكر كلمة الله ، لكى يشعر الإنسان بحضور الله فى الوسط وبنعمة خاصة . وهذه الكلمة تنير له الطريق .

إن الروح القدس الذى أوحى بالكلمة ، هو يعطى قوة لتنفيذها . ولنتذكر أن الشعب لما سمعوا الكلمة فى يوم الخمسين ، قيل عنهم إنهم « نخسوا فى قلوبهم » (أع ٢ : ٣٧) .

وقال القديس بولس لتلميذه تيموثاوس « وأنت منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة القادرة أن تحكمك للخلاص » (٢تى٣: ١٥) ... يجد فيها الإنسان الإرشاد الإلهى ، كما قال داود النبى « سراج لرجلى كلامك ونور لسبيلى » بل قال أكثر من هذا :

« لو لم تكن شريعتك هى تلاوتى ، هلكت حينئذ فى مذلتى » (مز١١٩) .

لهذا كله نلاحظ أن كنيستنا القبطية قد اهتمت بالكتاب المقدس اهتماماً كبيراً جداً .

اهتمام الكنيسة بالكتاب

إن الكنيسة المقدسة تهتم اهتماماً كبيراً بالكتاب المقدس . ففى كل قداس ، نقرأ فصلاً من الإنجيل فى رفع بخور عشية ، وفصلاً آخر فى رفع بخور باكر ، وفصلاً ثالثاً هو إنجيل القداس .

وإلى جوار قراءة الإنجيل مرات فى كل قداس ، توجد قراءات أخرى من

رسائل بولس، ومن الرسائل الجامعة (الكاثوليكون)، ومن سفر أعمال الرسل (الأ بركسيس)، إلى جوار مقتطفات من المزامير تسبق قراءة الإنجيل.

* * *

وعندما تقرأ الكنيسة الإنجيل أثناء القداس الإلهى يقف شماسان بالشموع إشارة إلى أن هذا الإنجيل هو سراج لأرجلنا ونور لسبيلنا وأن كلمة الرب مضيئة تنير العينين.

وقبل قراءة الإنجيل تصلى الكنيسة أوشية (طلبة) تسمى أوشية الإنجيل، يقول فيها الكاهن للرب «**فلنستحق أن نسمع ونعمل بأناجيلك المقدسة**، بطلبات قديسيك» .. أي أن مجرد سماعنا للإنجيل يحتاج إلى استحقاق، ويحتاج إلى صلاة، وإلى طلبات القديسين. والشعب كله يسمع وهو واقف، بينما يصرخ الشماس صائحاً «قفوا بخوف من الله، وانصتوا لسماع الإنجيل المقدس» ...

* * *

يقف الشعب كله فى خشوع. ورئيس الكهنة يرفع تاجه من على رأسه احتراماً لكلمة الله.

و يقبّل الشعب الإنجيل محبة له. و يكون الأب قد حمل الإنجيل على رأسه ودار به حول المذبح، اشارة إلى انتشار الإنجيل فى المسكونة كلها ...

* * *

كما أن عظات الكنيسة كلها مبنية على آيات من الكتاب المقدس. وكذلك كل مناهج التعليم الدينى.

ومع اهتمام الكنيسة بالتقليد، إلا أن كل الأمور الواردة فيه، لا يمكن أن تتعارض مع شيء من الكتاب، بل تثبتها آيات الكتاب المقدس. كما أن مجرد الاعتقاد بالتقليد، و بالتسليم الرسولى أمر يثبته الكتاب أيضاً.

* * *

ونرى الإنجيل ثابتاً فى صلواتنا اليومية.

فى الصلوات السبع، صلوات الأجبية، التى يصليها المؤمن كل يوم، والتى

تصليها الكنيسة فى قداساتها وفى اجتماعاتها: تشمل عدداً كبيراً من المزامير، وهى جزء من الكتاب. فى فصل من الإنجيل فى كل ساعة، ومقدمة من رسالة بولس الرسول إلى أفسس فى صلاة باكر. وهكذا فإن من يداوم على صلوات الأجبية، سيحفظ بالضرورة فصولاً من الإنجيل وعديداً من المزامير.

* * *

وفى كل سر من أسرار الكنيسة فصول من الإنجيل.

ففى صلاة القنديل (مسحة المرضى) مثلاً، تقرأ سبعة فصول من الإنجيل، خلال سبع صلوات. وفى صلاة تقديس المياه فى المعمودية تقرأ فصول عديدة من الكتاب. وحتى صلاة القداس الإلهى تعتمد غالبيتها على آيات من إنجيل يوحنا (٢٠: ٢٢، ٢٣)...

* * *

ونفس الوضع بالنسبة إلى الصلوات الطقسية.

فصول عديدة من الكتاب بعهديه فى طقس اللقان، وفى تدشين الكنائس، وفى مباركة المنازل الجديدة، وفى سيامة الرهبان أو الراهبات.

وفى ليلة أبوغالمسيس يقرأ سفر الرؤيا كله، مع عدد كبير من التسابيح وبخاصة من العهد القديم. وما أكثر فصول الكتاب من العهدين التى تقرأ خلال أسبوع الآلام.

والعهد القديم نقرأ منه أيضاً فى الصوم الكبير وفى صوم يونان، وفى كل ساعات البصخة المقدسة. وهو أساس لكثير من قطع الأبصلمودية.

هل يوجد اهتمام بالكتاب المقدس أكثر من هذا؟!

وفى سيامة الآباء البطاركة والأساقفة، يوضع الكتاب المقدس فوق رؤوسهم، ليلتزموا بتعليمه.

بقى أن أحدثك عن فائدة قراءة الكتاب المقدس فى حياتك. بل أيضاً كيف تقرأ الكتاب، وما هى علاقتك به.

وكذلك أريد أن أذكر لك تدريبات معينة تعمق علاقتك بالكتاب.

علاقتك بالكتاب المقدس

علاقتك بالكتاب المقدس تتركز فى نقاط رئيسية أهمها: اقتناء الكتاب، اصطحابه، قراءته، فهمه، التأمل فيه، دراسته، حفظه. وفوق الكل: العمل به، والتدرب على وصاياه وتحويلها إلى حياة.

١ - إقتناء الكتاب

ينبغى على كل شخص أن يقتنى الكتاب المقدس، سواء أكان كتاباً كبيراً على مكتبه للقراءة والدراسة، أو كتاباً صغيراً يكون فى الجيب أو حقيبة اليد: لا يفارقه. بل يصحبه فى كل مشوار، فى كل رحلة، فى كل مكان، أثناء وجوده فى العمل، أو فى وقت الراحة، أو أثناء الجلوس مع الناس.

يكون صديقه ورفيقه فى دخوله وخروجه، فى انتقاله وترحاله. يشعر أنه لا يستطيع الاستغناء عنه إطلاقاً. إن نسى أخذه معه، يحس أنه قد فقد شيئاً هاماً.

أخشى أن يكون الكتاب المقدس غريباً فى بيوتنا أو فى حياتنا «ليس له أن يسند رأسه» (لو٩: ٥٨)، أو أنه يسند رأسه فى مكتبتك أو على مكتبك وليس فى ذهنك ولا قلبك! نعم، لست أقصد باقتناء الكتاب أن يكون تحفة فى بيتك، أو تميمة فى جيبك، وإنما يجب أن يكون لاستعمالك الدائم. وأنت لا تصل إلى صداقة الكتاب هذه، إلا إذا كنت تحبه...

٢ - محبة الكتاب المقدس

تحب الكتاب لأنه رسالة الله إليك، تتلقفها فى حب...

تماماً كما يصل الإنسان خطاب من حبيب له، يقرؤه و يعيد قراءته، لأنه كلام

عزيز عليه ... كما يقول داود النبى عن كلام الله إنه « أشهى من الذهب ... وأحلى من العسل وقطر الشهاد » (مز١٩ : ١٠) . و يقول عنه الرب فى المزمور الكبير:

« إن كلماتك حلوة فى حلقى . أفضل من العسل والشهد فى فمى » .

و يقول أيضاً « أحببت وصاياك أفضل من الذهب والجوهر» « ممحص قولك جداً . عبدك أحبه » « أبتهج بكلامك كمن وجد غنائم كثيرة » « اشتهيت وصاياك » « أحببت وصاياك» « أحببت شهاداتك» « لكل كما رأيت منتهى . أما وصاياك فواسعة جداً » (مز١١٩) . و يقول أيضاً :

« لو لم تكن شريعتك هى تلاوتى ، هلكت حينئذ فى مذلتى » (مز ١١٩) .

وهكذا إن أحببت الكتاب ، تجد لذة فى قراءته ومتعة .

وهذه اللذة تجعلك تداوم على القراءة وتلهج بها .

٣- المداومة على قراءة الكتاب

يقول المزمور الأول عن الإنسان الطيب المطوب :

« فى ناموس الرب مسرته . وفى ناموسه يلهج نهاراً وليلاً » .

وهذه هى الوصية التى قالها الرب ليشوع بن نون « لا يبرح سفر هذه الشريعة من فمك ، بل تلهج فيه نهاراً وليلاً ، لكى تتحفظ للعمل بكل ما هو مكتوب فيه » (يش ١ : ٨) .

إن قراءة الكتاب تكون أفيد ، إن كانت بمواظبة ومداومة . وبطريقة منتظمة ، كل يوم ...

وذلك لكى تتشبع بروح الكتاب ، و يثبت تأثيره فيك ، وتصبح قراءته عادة عندك . ويمكن أن تضع لنفسك أن تقرأ فقرات من الكتاب فى كل صباح قبل أن تخرج من بيتك ، لتكون مجالاً لتفكيرك وتأملاتك خلال اليوم ، وتملأ ذهنك فى مشيك وفى دخولك وخروجك . كما تقرأ أيضاً فصلاً آخر قبل النوم ، لكى تفكر فى هذه

الآيات قبل النوم ، فتصحبك حتى فى أحلامك...

إن القراءة المنتظمة فى الكتاب تساعد على الهذيذ فيه، أو اللهج به، واستمراره فى الفكر...

وهكذا تستطيع أن « تلهج به نهاراً وليلاً » حسب الوصية . وإن كان هذا اللهج ممكناً لملك عظيم مثل داود النبى، أو قائد عظيم مثل يشوع، على الرغم من كثرة مسئولياتهما ، فكم بالأولى نحن ولاشك أننا أقل منهما مشغولية بكثير...؟!

ولقراءة الكتاب عناصر هامة تساعد على الاستفادة منه ، نذكر من بينها :

٤ـ القـــراءة بخشـــوع

أنت فى القراءة تستمع إلى الله يكلمك ، فاسمعه بخشوع ...

وبقدر خشوعك فى القراءة ، يكون تأثير كلام الله عليك .

لأن قلبك يكون فى ذلك الوقت مستعداً ، شاعراً بأنه فى حضرة الله ... ولذلك فإن الكنيسة حينما تتلو علينا قراءات من الكتاب فى القداس الإلهى، يصيح الشماس قائلاً « قفوا بخوف من الله ، وانصتوا لسماع الإنجيل المقدس » ... والأب الكاهن قبل قراءة الإنجيل ، يرفع البخور و يصلى أوشية يقول فيها :

اجعلنا مستحقين أن نسمع ونعمل بأناجيلك المقدسة ... » .

إن مجرد السماع يحتاج إلى استحقاق ، ويحتاج إلى استعداد ، ونحن نذكر أن موسى النبى ـ قبل سماع الوصايا العشر ـ دعا الشعب أن يتطهروا و يتقدسوا مدة ثلاثة أيام ، لكى يستحقوا أن يسمعوا كلمة الله إليهم » (خر١٩ : ١٠ـ ١٥) .

فالذى يقرأ كلمة الله باستهانة وإهمال ، لا يتأثر ولا يستفيد .

تعوّد إذن أن تقرأ الكتاب بهيبة واحترام ... تذكر أنك فى الكنيسة تقف ، ويخلع رئيس الكهنة تاجه أثناء القراءة ، احتراماً لكلمة الله ، فلا تكن أنت فى الكنيسة بروح ، وفى البيت بروح آخر... وماذا أيضاً فى عناصر القراءة ؟

٥ ـ القـــراءة بفهـــم

ادخل إلى عمق الكلام الإلهى ، وافهم المقصود منه ...

اقرأ بتأمل وعمق . فالفاهمون يضيئون كضياء الجلد » (دا ١٢ : ٣) .

كان الكتبة والفريسيون من علماء اليهود ، ومع ذلك ما كانوا يفهمون كلمة الله ، ولا يعرفون مقاصد الله منها ...! مثال ذلك ما كانوا يفهمون معنى وصية تقديس السبت . وما كانوا يفهمون معنى كلمة (القريب) ، حتى شرح الرب مثال السامرى الصالح ...

* * *

وأهمية الفهم لازمة جداً ، حتى أن الرب يقول :

« هلك شعبى من عدم المعرفة » (هو ٤ : ٦) .

ومن لوازم المعرفة ، عدم الاعتماد على آية واحدة . فالإنجيل ليس آية واحدة ، وإنما هو كتاب . ومجرد آية ، لا يعطى معنى متكاملاً لقصد الله ووصيته ... ولذلك :

اجمع الآيات التى تخص موضوعاً واحداً ، واخرج بمعنى متكامل .

* * *

ومن ضمن الشروط التى تساعدك على فهم كلمة الله :

أن تقرأ بروح ، وبعمق ...

فليس المهم فى كثرة ما تقرأه ، ولو بغير فهم أو بغير تأمل !! وإنما تكمن استفادتك فى العمق الذى تقرأ به ، حيث تدخل كلمة الله إلى أعماق فكرك وإلى أعماق قلبك ، وتجعلها تمس مشاعرك ...

* * *

لذلك اهتم بروح الوصية ، وليس بمجرد النص .

فكلام الله ـ كما قال ـ « هو روح وحياة » (يو ٦ : ٦٣) .

لذلك عليك أن تعرف روح الوصية ، ولا تتمسك بحرفيتها ، لأن القديس بولس

الرسول يقول فى هذا المعنى :

« لا الحرف بل الروح . لأن الحرف يقتل لكن الروح يحيى » (٢كو٣: ٦) .

والشخص الروحى يسلك بروح الوصية ، وليس بمجرد حرفيتها ، كما كان يفعل الكتبة والفريسيون ...

* * *

وفهم الكتاب لازم جداً ، سواء من جهة الروحيات أو من جهة العقيدة والإيمان .

كثيرون كانوا يقرأون الكتاب ، ولكنهم ضلوا لأنهم ما كانوا يعرفون المفهوم السليم ، فلم يدركوا « ما يقوله الروح للكنائس » (رؤ٢، رؤ٣) . وهكذا يقول السيد المسيح له المجد « تضلون إذ لا تعرفون الكتب » (مت ٢٢ : ٢٩) . لذلك حاول أن تعرف المفهوم السليم لكل ما تقرأ . وإن لم تعرف ، استشر واسأل ...

* * *

كثيرون من الهراطقة كانوا يقرأون الكتاب ، بل حسبهم البعض علماء . ولكنهم ضلوا لعدم الفهم

أو أنهم كانوا أحياناً يأخذون آية من الكتاب ، و يتركون باقى الآيات التى تكمل الفهم . فمثلاً يوردون قول الرب « لأن أبى أعظم منى » (يو١٤ : ٢٨) ، ولا يضعون إلى جوارها « أنا والآب واحد » (يو١٠ : ٣٠) . أو يقول البعض : قال الرسول « آمن بالرب يسوع فتخلص أنت وأهل بيتك » (أع١٦ : ٣١) . ولا يذكرون معها قول الرب « من آمن واعتمد خلص » (مر١٦ : ١٦) .

* * *

لذلك إن قال لك البعض : مكتوب (كذا) ، قل له كما قال الرب « ومكتوب أيضاً » (مت ٤ : ٧) .

إن قال لك أحد المتزمتين : مكتوب « بكآبة الوجه يصلح القلب » (جا٧ : ٣) . قل له ومكتوب أيضاً : « افرحوا فى الرب كل حين ، وأقول أيضاً افرحوا » (فى ٤ :

٤) . ومكتوب كذلك « لكل شيء تحت السموات وقت ... للبكاء وقت ، وللضحك وقت » (جا ٣ : ١ ، ٤) ... وهكذا كن حكيماً فى فهم ما تقرأ ...

* * *

إن حاربك السبتيون بحفظ السبت قائلين : مكتوب « اذكر يوم السبت لتقدسه » (خر ٢٠ : ٨) . قل لهم ومكتوب أيضاً « لا يحكم عليكم أحد فى أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت ، التى هى ظل الأمور العتيدة » (كو ٢ : ١٦ ، ١٧) .

إن آيات الكتاب - إذا اجتمعت معاً - تكوّن تكاملاً وتناسقاً وعمقاً للفهم ، واستخداماً لكل شيء فى موضعه .

ماذا أيضاً عن علاقتك بالكتاب ؟ هناك نقطة هامة أخرى وهى :

٦- حفظ آيات الكتاب

حاول أن تحفظ آيات من الكتاب تمثل مبادىء روحية معينة ، أو أسساً فى العقيدة والإيمان ، أو وعوداً من الله تشجعك وتعزيك ، أو تشمل ردوداً على مسائل تشغلك . وهذه الآيات ترددها كثيراً فى ذهنك وقلبك ، بلون من الهذيذ الذى يلصقها بروحك وأعماقها ، و يدخلها فى عقلك الباطن ، ويحفرها فى ذاكرتك فتخرج منها حين تحتاج إليها ...

* * *

والأمثلة على حفظ آيات الكتاب كثيرة :

البعض يحفظ مثلاً العظة على الجبل (مت ٥ - ٧) . أو صفات المحبة (١كو١٣) ، أو توصيات روحية كثيرة فى (رو١٢) وفى (١تس ٥) . أو اجزاء من سفر الأمثال أو سفر الجامعة . أو الوصايا العشر فى (خر ٢٠ ، تث ٥) . أو يحفظ عدداً كبيراً من المزامير ، ومن صلوات الأنبياء فى الكتاب المقدس . أو آيات متفرقة تترك تأثيراً فى قلبه حين قراءتها . أو آيات خاصة بفضائل معينة ، أو خاصة بعقائد إيمانية ، أو تمثل ردوداً على حروب روحية ... والأمثلة فى هذا المجال عديدة جداً ...

لو أن الإنسان الروحى حفظ آية واحدة كل يوم ، كم ستكون محفوظاته فى عام كامل ؟ ...

بل كم ستكون محفوظاته فى عدة أعوام ؟! وحتى إن حفظ واحدة كل أسبوع ، لا شك سيحفظ ٥٢ آية فى العام، أو ٥٢٠ آية فى عشرة أعوام . و يعتبر هذا قدر ضئيل جداً يتعبه بسببه ضميره .

و يبقى بعد ذلك استخدام الآية التى يحفظها ... وقد كنت كثيراً ما أقول لأ- بنائى فى هذا الصدد :

احفظوا الإنجيل ، يحفظكم الإنجيل ...

احفظوا المزامير ، تحفظكم المزامير ...

ولكن كيف تحفظكم ؟ ولداود النبى تأملات كثيرة فى هذا الموضوع .

انتقل الآن إلى نقطة أخرى وهى :

٧- التأمل فى الكتاب

ما تقرأه من الكتاب ، وما تحفظه من آياته ، يمكن أن يكون مجالاً لتأملاتك . تخلط به روحك وفكرك ، وستجد نتيجة ذلك بما يوحى به إليك . وترى أن لكل كلمة معانى ودلائل ، تتجدد فى قلبك وتتعدد ، وتدخلك فى جو روحى .

نصيحتى لك إذن ، أنك لا تقتصر على مجرد القراءة ، وإنما أدخل إلى أعماقها بالتأمل ، وقد كتبت لك موضوعاً عن التأمل يمكن أن تقرأه .

نصيحة أخرى خاصة بقراءة الكتاب وهى :

٨- إقرأ بروح الصلاة

إبدأ القراءة بالصلاة ، طالباً من الله أن يعطيك فهماً ، و يكشف لك مشيئته . وقل كما قال داود النبى فى المزمور الكبير:

« اكشف يارب عن عينى ، لأرى عجائب من شريعتك » (مز ١١٩) .

واختم القراءة بالصلاة ، طالباً من الرب أن يعطيك قوة للتنفيذ. وكما أعطاك فهماً ، يعطيك رغبة وإرادة .

بل اصحب القراءة أيضاً بالصلاة ، وكما يقول الكتاب « وعلى فهمك لا تعتمد » (أم٣ : ٥) . حاول بالصلاة أن تستلم رسالة الله إليك .

البعض يضع فى ذهنه فكرة مسبقة استقر عليها ، ثم يقرأ ليبحث عن آية تثبت له ما قد استقر فكره عليه . أو يحاول أن يطوّع كلام الكتاب لأفكاره !! أما أنت فلا تكن هكذا ، إنما اقرأ لكى تتعلم ولكى تعرف .

* * *

ويلزمك لذلك روح الاتضاع فى صلاتك ...

الاتضاع الذى تخضع به لتعليم الكتاب ، وتغير وتصحح به فكرك ... والاتضاع الذى تطلب به المعرفة ، قائلاً مع داود النبى « علمنى يارب طرقك . فهمنى سبلك » وكأنك وأنت تقرأ تقول له :

« ماذا تريد يارب أن أفعل ؟ » (أع ٩ : ١٦) .

أما ماذا تفعل ، فهذا ما أريد أن أحدثك عنه فيما بعد



تأثير الكتاب المقدس

مركزه في بيتك
وتداريب خاصة به

من الآيات الواضحة جداً عن تأثير كلمة الله ، هى قوله تبارك إسمه « هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فمى . لا ترجع إلىّ فارغة ، بل تعمل ما سررت به ، وتنجح فى ما أرسلتها له » (أش ٥٥ : ١١) .

نعم ، إن كلمة الله لا ترجع فارغة .

إن لها قوتها ، ولها تأثيرها . والذين اختبروا قوة الكلمة فى حياتهم ، يستطيعون أن ينقلوا هذه القوة إلى غيرهم أيضاً... إن القديس بولس الرسول فى شرحه لقوة الكلمة وتأثيرها يقول « كلمة الله حية وفعالة وأمضى من كل سيف ذى حدين ، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل ، ومميزة أفكار القلب ونياته » (عب ٤ : ١٢) .

* * *

ولعل إنساناً يقول : إذن لماذا اقرأ ولا أتأثر ؟!

يقيناً إن العيب هو فيك أنت ، وليس فى الكلمة ، إن كلمة الله مثل سيف ذى حدين . بالنسبة إلى اللحم يقطعه ، ولكنه لا يقطع الصخر . لذلك قال الرب فى سفر حزقيال النبى « وانزع قلب الحجر من لحمكم ، وأعطيكم قلب لحم » (حز ٣٦ : ٢٦) . فما هو نوع قلبك الذى يستقبل كلمة الله . أهو قلب حجر أو قلب صخر؟ إن عذراء النشيد سمعت صوت الرب يناديها « افتحى لى يا أختى يا حبيبتى ، يا حمامتى ، يا كاملتى ، فإن رأسى قد امتلأ من الطل وقصصى من ندى الليل » (نش ٥ : ٢) . ومع ذلك لم تفتح ، واعتذرت بأعذار... !

* * *

إن كلمة الله حية وفعالة . ولكنها تعمل بالأكثر فى الذين يفتحون قلوبهم لها ،

و يريدون أن تعمل فيهم .

ومع ذلك فإن كلمة الله إن لم تعمل فيك اليوم ، فقد تعمل بعد حين .. ولا ترجع فارغة .

ستظل راسخة فى عقلك الباطن . وفى وقت ما ، حينما يصبح قلبك مهيئاً لها ، وحينما تكون الظروف المناسبة ، تجد الكلمة قد خرجت من ذاكرتك ، ولصقت بقلبك ، وأخذت تعمل عملها .

وكأن عدم استجابتك الأولى كانت تصرفاً مؤقتاً ، أو فترة أو لحظة فتور ، تستيقظ بعدها إلى نفسك . مثل عذراء النشيد التى اعتذرت أولاً عن فتح باب قلبها . ثم عادت تقول « حبيبى مدّ يده من الكوه ، فأنّت عليه أحشائى ... نفسى خرجت عندما أدبر ... » (نش ٥ : ٤ ، ٦) .

* * *

ليست كل بذرة تلقى على الأرض ، تخرج ثمراً فى نفس الوقت . ربما بعد أيام أو شهور ...

لذلك اختزن كلام الله فى قلبك وفى ذهنك ، وسيعطى ثمره فى الحين الحسن . و بخاصة إذا كنت تتعهده بالاهتمام ، وتلهج فيه النهار والليل ، وتحفظه من الموانع التى تعوق عمله ، سواء أكانت موانع داخلية أو خارجية ... ربما بذرة فى الأرض ، ولم تصل إليها المياه ، فظلت كما هى ، والحياة فيها ولكنها كامنة . ثم وصلتها المياه بعد أيام ، فبدأت هذه الحياة تنشط وتظهر على وجه الأرض . لذلك ما أجمل قول الكتاب « إرم خبزك على وجه المياه ، فإنك تجده بعد أيام كثيرة » (جا ١١ : ١) .

* * *

ولهذا لا تيأس فى الخدمة ، إن لم تلاحظ للكلمة ثمراً سريعاً ...

بل اصبر وانتظر الرب ، ولا تتضجر . فليست كل النفوس من نوعية واحدة . وليست كلها سريعة الاستجابة . وليست كل الظروف الخارجية مواتية ... هناك من يسمع الكلمة فيتأثر بسرعة . وهناك من يحتاج بعدها إلى شرح وإقناع ، وإلى متابعة وحلّ الإشكالات التى تعترضه فى التنفيذ ...

وهناك من يأخذ الكلمة للمعرفة وليس للحياة .

يتناولها بعقله لا بروحه ، ليوسع بها مداركه لا ليطهر بها قلبه ... وهذا هو الفارق بين العالم والعابد ... فالعالم يقرأ الكتاب و يدرسه ، و يشرحه و يفسره ، كما كان يفعل الكتبة والفريسيون وهم جلوس على كرسى موسى (مت ٢٣ : ٢) . يعلّمون ولا يعملون . أما العابد فيشبه داود النبى الذى كان يقول « خبأت كلامك فى قلبى ، لكيلا أخطىء إليك » (مز ١١٩ : ١١) . وهذا كان هدفه من كلام الله ...

عمله فيك

إن استجبت لكتاب الله ، وتركت كلمته تعمل فيك ، فماذا تراه سيكون عمل الكلمة الإلهية فيك ؟ إن النتائج كثيرة بلاشك ، فلنحاول أن نتتبعها ...

١ - إنها تجمع العقل من الطياشة وتشغله بالإلهيات .

لو تركت فكرك على سجيته ، فلست تدرى فى أى موضوع يطيش . ولكن القراءة عموماً تجمع العقل من تشتته ، وتركزه فى موضوع القراءة . أما قراءة الكتاب بالذات ، فإنها تهدى الفكر إلى ميناء سليم . والخشوع فى القراءة يعطى تركيزاً أكثر بسبب توقيرك لكلمة الله . و يكون لهذا التركيز تأثيره الروحى .

* * *

٢ - قراءة الكتاب تمنحك فهماً واستنارة ومعرفة ...

لذلك يقول المرتل فى المزمور « سراج لرجلى كلامك ونوراً لسبيلى » (مز ١١٩ : ١٠٥) . و يقول أيضاً « وصية الرب مضيئة تنير العينين عن بعد » (مز ١٩) . لهذا نحن نوقد الشموع ونحملها أثناء قراءة الإنجيل ، متذكرين هذه الاستنارة . أما عن الفهم فيقول المرتل : « **شهادات الرب صادقة ، تصيّر الجاهل حكيماً** » (مز ١٩) .

بل يقول أيضاً « أكثر من جميع الذين يعلموننى فهمت ، لأن شهاداتك هى درسى . أكثر من الشيوخ فهمت ، لأنى طلبت وصاياك » (مز ١١٩ : ٩٩) . بهذا الفهم يتعلم الإنسان طرق الرب ، و يعرف كيف يسلك ، و يقتنى موهبة الإفراز والحكمة . و بخاصة لو اهتم بمعرفة كيف كان قديسو الكتاب يسلكون ، وكيف كانوا يتعاملون مع الله ومع الناس . وأخذ من تصرفاتهم أمثولة لحياته يقتدى بها (عب ١٣ : ٧) .

٣ ـ بل قراءة الكتاب ترشده أيضاً إلى العقيدة السليمة .

وذلك إذا قرأ بفهم وإفراز وتحت إرشاد. وكل عقيدة حفظ لها آية أو بضع آيات. وصارت آيات الكتاب تحفظه من البدع والهرطقات ومن كل تعليم خاطىء. وهذا ما كان يفعله آباء الكنيسة الكبار أبطال الإيمان. إذ كانوا يقاومون البدع عن طريق فهمهم للكتاب ومحصول الحفظ العجيب لآياته فى أذهانهم .

★ ★ ★

٤ ـ الكتاب أيضاً يرشد قارئه إلى حياة التوبة وإلى النمو الروحى .

فى ضوء وصاياه ، يمكن أن يصل إلى محاسبة النفس بطريقة سليمة ، فيكتشف ضعفاته وخطاياه. و يعرف أن المطلوب منه ليس هو فقط التوبة عن الخطية ، بل بالأكثر حياة القداسة والكمال حسب قول الرسول « نظير القدوس الذى دعاكم ، كونوا أنتم أيضاً قديسين فى كل سيرة. لأنه مكتوب كونوا قديسين لأنى أنا قدوس » (١بط ١: ١٥، ١٦) (لا ١١: ٤٤). و يقول الرب أيضاً « فكونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (مت ٥: ٤٨) .

و يشرح الكتاب تفاصيل حياة التوبة والقداسة والكمال ، و يقدم لها مُثلاً . ومن الناحية العكسية يقول :

« تضلون إذ لا تعرفون الكتب » (مت ٢٢ : ٢٩) .

★ ★ ★

٥ ـ وقراءة الكتاب تمنح العقل والإرادة لوناً من الاستحياء ، إذا تعرض الإنسان لإغراء الخطية. إذ كيف أن فكره الذى تقدس بكلام الله و بالجو الروحى أثناء قراءته، يعود و يتدنس بفكر الخطية !!

★ ★ ★

٦ ـ وفى محاربات الشيطان ، يستطيع الإنسان أن يرد على الخطية بالوصية .

وذلك حسبما شرح القديس مارأوغريس فى كتابه عن حروب الأفكار ...

فإذا ضاع وقتك فى الثرثرة والكلام الكثير، تذكر قول الكتاب « إن كثرة الكلام لا تخلو من معصية » (أم ١٠: ١٩). وقول المرتل « ضع يارب حافظاً لفمى و باباً حصيناً لشفتى » .

وإذا حوربت بالغضب تذكر قول الرسول « ليكن كل إنساناً مسرعاً إلى الاستماع ، مبطئاً فى التكلم ، مبطئاً فى الغضب . لأن غضب الإنسان لا يصنع بر الله » (يع ١ : ١٩ ، ٢٠) . وأيضاً قول الكتاب « لا تصطحب غضوباً ، ومع صاحب سخط لا تجىء » (أم ٢٢ : ٢٤) .

وإذا حوربت بالنظر الشهوانى ، تذكر قول الرب « كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها ، فقد زنى بها فى قلبه » (مت ٥ : ٢٨) . وتذكر أيضاً قول أيوب الصديق « عهداً قطعت لعينىّ ، فكيف أتطلع فى عذراء » (أى ٣١ : ١) .

وهكذا كانت آيات الكتاب ثابتة فى ذهنك وفى قلبك ، تستطيع أن تسترجعها ، وترد بها على كل حرب روحية يحاربك بها العدو... مجرد تذكر الوصية يخجلك ، و يرد قلبك عن ارتكاب الخطية . وغالباً الشخص الذى يخطىء ، يكون وقتذاك فى حالة نسيان لوصايا الله . محبة الخطية قد خدرته ...

* * *

٧ ـ كلام الكتاب أيضاً يعزيك فى ضيقاتك ، و يقويك كلما ضعفت .

وكثيراً ما كان داود النبى يقول فى مزاميره للرب « وعلى كلامك توكلت » (مز ١١٩ : ٨١) . و يقول له أيضاً « اذكر لعبدك كلامك الذى جعلتنى عليه أتكل ، هذا الذى عزانى فى مذلتى » (مز ١١٩) ... وكلما كان يتعرض لهجمات الأعداء كان يقول « لولا أن الرب كان معنا حين قام الناس علينا ، لابتلعونا ونحن أحياء ... نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين . الفخ انكسر ونحن نجونا . عوننا من عند الرب الذى صنع السماء والأرض » (مز ١٢٣) .

ما أكثر كلام الكتاب عن الرجاء ...

الذى يقرأه ويحفظه ، يستريح قلبه ويجد سلاماً ، بل كما قال الرسول « فرحين فى الرجاء » (رو ١٢ : ١٢) ... إن وعود الله فى كتابه المقدس ، تعطى النفس اطمئناناً عجيباً ، مثل قوله « ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر » (مت ٢٨ : ٢٠) . وقوله « وأما أنتم ، فحتى شعور رؤوسكم محصاة . فلا تخافوا » (مت ١٠ : ٣٠ ، ٣١) . وقوله « أنا معك . لا يقع بك أحد ليؤذيك » (أع ١٨ : ١٠) ... وما أكثر الآيات . ليتك تجمعها وتحفظها ...

و يعوزنى الوقت إن تكلمت ، ولا تكفى الصفحات .

* * *

٨ ـ فالكتاب فيه كل شيء ، لكل أحد ، فى كل حالة .

أياً كانت ظروفك ، أياً كانت حالتك النفسية ، فسوف تجد فى الكتاب رسالة لك تريحك . تجد فيه كل ما يلزمك ، وما يناسبك . يكفى مثلاً كتاب (المزامير) فيه كل ألوان المشاعر والصلوات . وسفر الأمثال فيه كل أنواع النصائح . وكل سفر يحوى لك رسالة معينة إن أحسنت انتقاءها وفهمها...

استخدامك للكتاب

١ ـ يمكنك أن تستخدمه أولاً كمادة للصلاة .

فبالإضافة إلى صلاتك قبل القراءة وبعدها ، فإن قراءة الكتاب تشعل فيك مشاعر معينة تجد نفسك محتاجاً أن تحولها إلى صلاة . وكذلك فإن قراءة سفر كالمزامير مثلاً يعلمك كيف تصلى ، ومنه تعرف أسلوب التخاطب مع الله . ونفس الوضع فى قراءتك لصلوات رجال الله فى الكتاب ، مثل صلاة دانيال النبى (دا ٩) . وصلاة عزرا (عز ٩) ، وأيضاً صلاة نحميا (نح ١) وصلاة سليمان (١مل ٨) ، وصلاة يونان فى بطن الحوت (يون ٢) . وتسبحة العذراء (لو ١) . وباقى التسابيح والصلوات التى فى الكتاب .

* * *

٢ ـ ويمكن أن يكون الكتاب مادة للتأمل :

بأن تتخذ حادثاً معيناً من الأسفار التاريخية مجالاً للتأمل ، أو إحدى المعجزات ، أو مثلاً ، أو آية . وتخلط بكل ذلك قلبك وفكرك ، وتسجل تأملاتك .

* * *

٣ ـ أو تتخذ وصايا الكتاب مجالاً للتداريب الروحية .

بما يناسب مستواك واحتياجك الروحى ، لكى تنمو فى حياة الفضيلة . وستجد شرحاً طويلاً لهذا فى مقالنا عن التداريب الروحية .

* * *

٤ ـ أو تتخذ من قراءة الكتاب مجالاً للتوبة .

فإن قرأت مثلاً قول الرب « إن قدمت قربانك إلى المذبح ، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك ، أترك هناك قربانك قدام المذبح ، واذهب أولاً اصطلح مع أخيك » (مت ٥: ٢٣ ، ٢٤) ، تجد فى داخلك دافعاً قوياً أن تذهب لتصالح من أسأت إليهم . وإن قرأت آيات عن النذر (جا ٥: ٤ ، ٥) .. تجد أنك ملزم أن توفى للرب نذورك التى تأخرت فى دفعها .

٥ ـ يمكن أن تتخذ كثيراً من الآيات مجالاً للحفظ .

تداريب لحفظ الكتاب

١ ـ احفظوا بعضاً من الفصول الأساسية الهامة فى الكتاب :

ومن أمثلة ذلك العظة على الجبل ، دستور المسيحية (متى ٥ ـ ٨) وفصل المحبة (١كو١٣) ، والوصايا الجميلة فى (رو١٢) ، وصلاة المسيح الطويلة قبل ذهابه إلى جثسيمانى (يو١٧) . و بعض أحاديث المسيح مع تلاميذه (يو١٤ ـ ١٧) .

٢ ـ دربوا أنفسكم وأولادكم على حفظ آيات على الحروف الأبجدية .

آيات تبدأ بحروف أسمائكم ، أو أسماء القديسين ، أو الصفات الفاضلة ، أو آيات كلمة مناسبة مثل كنيسة ، تربية كنسية ، كهنوت ...

٣ ـ يمكن حفظ آيات ترد فيها كلمات معينة :

كأن تقول للولد : قل آيات خاصة بالحجرة (كرسى ـ فراش ـ أرض ـ مصباح ـ باب ـ نور) أو آيات عن أعضاء جسمه (وجه ـ عين ـ شفتان ـ رجل ـ يد ...) .

٤ ـ يمكن أيضاً حفظ آيات موضوعية :

آيات عن الفرح ، العزاء ، الوداعة ... آيات لمحاربة بعض أفكار . آيات لتشجيع يائس ، أو لنصح خاطىء ، أو للشكر ...

٥ ـ يمكن التدرب على استخدام آيات أثناء الحديث مع الناس .

لتكن لغة الكتاب حاضرة فى فمك تستخدمها فى كلامك وأحاديثك وقصصك . بهذا لا تخطىء كثيراً ، كما أنك تكون قدوة .

كذلك فى كل موقف ، فى كل مشكلة ، حاول أن تتذكر آية ...

٦ ـ يمكن أيضاً عمل نوتة للآيات المختارة : أكتب فيها الآيات التى تؤثر فيك ، والتى تمثل خطة عمل . ثم احفظها .

أريد أن أعمل لكم مسابقة فى الحفظ ، أو أن نخرج لكم كتيبات تساعد على حفظ الآيات فى شتى الموضوعات...

الكتاب فى بيتك

وهنا أضع أمامك قول الرب فى سفر التثنية :

« لتكن هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها اليوم على قلبك ، وقصّها على أولادك . وتكلم بها حين تجلس فى بيتك ، وحين تمشى فى الطريق ، وحين تنام وحين تقوم... واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك » (تث ٦ : ٦ ـ ٩) .

* * *

فما مدى تنفيذك لهذه الوصايا ؟

أ ـ هل هناك آيات مبروزة ومعلقة على جدران بيتك ، تحفظها أنت وزوجتك وأولادك .

ب ـ هل تعلم أولادك ما فى الكتاب حسب قوله « وقصها على أولادك » ، أم تعتمد على مدارس الأحد وتخلى نفسك من المسئولية ؟! و يدرك الأ بناء أن والديهم لا يحدثونهم أبداً عن كلمة الله !!

ج ـ هل تستخدم لغة الكتاب فى أحاديثك المنزلية ، حسب الوصية « وتكلم بها حين تجلس فى بيتك » ؟

د ـ هل تقرأ الكتاب يومياً مع أفراد أسرتك ؟ وهل لكم اجتماع عائلى حول الكتاب ؟

هـ ـ هل تقيم لأ ولادك مسابقات فى حفظ الآيات ، وهل تدربهم على ذلك ؟ ... إنى أسأل قبل أن يسألك الله فى ذلك .


الباب الثالث
قراءة
سير القديسين

قراءة سير القديسين

قراءة سير القديسين من أهم الوسائط الروحية التي تستخدمها النعمة لتنمية علاقتنا مع الله، واشعال محبتنا له وملكوته.

وهي تقدم لنا التنفيذ العملي للمبادىء الروحية.

ربما تبدو لنا كثير من الوصايا والتعاليم وكأنها مبادىء نظرية. ولكننا نراها في سير القديسين في الواقع العملي، منفذة بصورة واضحة وفي ظروف مناسبة لها.

وهكذا ترينا سير القديسين أن وصايا الرب سهلة وممكنة، وليست مثاليات نظرية.

فكثيراً ما يقول البعض في استغراب: من يستطيع أن ينفذ هذه المثاليات؟! هل حقاً يمكن لإنسان أن يحول الخد الآخر لمن يلطمه على خده؟! (مت ٥: ٣٩). هل يمكن أن يصلي إنسان كل حين ولا يمل (لو١٨: ١)؟! وأن يصلي بلا انقطاع! (١تس٥: ١٧). وهل يمكن أن يعطي الإنسان كل ماله للفقراء؟! (مت١٩: ٢١). هذه الأسئلة مع الكثير من أمثالها، نراها جميعاً مجابة وممثلة في سير القديسين.

* * *

ولقد سمح الله أن يقدم لنا هؤلاء القديسون أمثلة عالية في كل فضيلة من الفضائل بلا استثناء.

وبطريقة مذهلة حقاً، تدعو إلى الاعجاب الشديد بروحانية أولئك الأبرار، حتى وكأنهم كانوا ملائكة أرضيين، ارتفعوا فوق مستوى المادة والجسد، وعاشوا بالروح مع الرب؛ في حياة نصرة كاملة على كل حروب العدو. أو نقول إنهم عادوا إلى الصورة الإلهية التي خُلق بها الإنسان منذ البدء.. فحياتهم تشجع كل إنسان أن يسير في النهج

الروحى ، بلا خوف و بلا تردد .

بحيث نقول فى ثقة حينما نقرأ عنهم :
الله قادر أن يعيننا كما أعانهم ...

حياة البر إذن ممكنة وسهلة ومتاحة ، لكل من يطلبها . ونعمة الله مستعدة أن نعمل فى كل قلب ، وترفعه إلى أسمى درجة ، مهما كانت حالته الأولى .. فروح الله الذى كان يعمل ، و يقود النفوس نحو الله ، ويمنحهم كل الإمكانيات والمواهب .

* * *

فما عمله القديسون ، هو ما عمله روح الله معهم . أترانا نقرأ عنه أم عنهم فى هذه السير؟ ...

أم القصص التى وردت فى سير القديسين ، إنما تحكى «عن شركة الروح القدس » (٢كو١٣ : ١٤) . أو هى قصة (الله مع الناس) . عمل الله معهم ، أو عملهم معه . يبدأ الله فيستجيب الناس ، أو يتجه الناس نحو الله ، فيجذبهم إلى أحضانه بكل قوة . أو هى صورة لتلك العبارة فى سفر النشيد «اجذبنى وراءك فنجرى » (نش ١ : ٤) .

* * *

لقد كان لسير القديسين تأثير عميق فى الجميع على مدى الأجيال .

فقصة حياة القديس الأنبا أنطونيوس التى كتبها القديس أثناسيوس الرسولى ، كان لها تأثير عجيب فى أهل روما ، حتى كانت سبباً فى انتشار الرهبنة هناك . ولما قرأها القديس أوغسطينوس تأثر بها جداً ، وقادته إلى التوبة . كذلك فإن تأثير سير الرهبان فى برية شيهيت ، جذب إليهم السواح من كافة البلاد ، ليروا هؤلاء الذين عاشوا على الأرض وكأنهم فى السماء ... فجاءوا إليهم ، ليسمعوا من أفواههم كلمة منفعة ، وكتبوا قصصهم أو بعضاً منهم ، فحفظها التاريخ .

* * *

إن هؤلاء القديسين لم يكتبوا أى كتاب عن حياتهم . ولكن حياتهم كانت هى أشهى كتاب .

كانت التاريخ الحى الذى قرأه جيلهم ، وعاش به ونقله إلى باقى الأجيال .

والوحى الإلهى نفسه نقل إلينا سير كثير من الأنبياء والرسل ، حتى تسمت بأسمائهم بعض الأسفار المقدسة ، التى شرحت لنا عمل الله فيهم ، ورسالتهم التى كلفهم الله بها ، وسيرتهم المقدسة .

* * *

وقد اهتمت الكنيسة جداً بسير القديسين .

فوضعتها فى كتاب اسمه السنكسار ، لكى تقرأ منه فى كل قداس إلهى ، سيرة واحد منهم أو أكثر ، لتعزيتنا وتعليمنا . وتقرأ أيضاً على المؤمنين جزءاً آخر من سير آبائنا الرسل الأطهار من (الأبركسيس) ، أى سفر « أعمال الرسل » . وما أكثر ما تقيم الكنيسة أعياداً لأولئك القديسين ، تحتفل فيها بذكراهم ، وتعيد على الآذان والأذهان سيرهم وفضائلهم .

وكذلك أيقوناتهم فى الكنائس ، وما يوضع أمامها من شموع ، إنما تعيد إلى الذاكرة سير أولئك القديسين ، لتكون غذاء للروح ومجالاً للتأمل فى فضائلهم . وما أجمل قول ماراسحق :

« شهية هى أخبار القديسين ، مثل الماء للغروس الجدد » .

إنها غذاء روحى لا يستغنى عنه أحد ، يجلب لنا الشعور بمحبة الله ، ومحبة طرقه التى تؤدى إلى الملكوت ... وتجعلنا أيضاً نحب الفضيلة ، ونحب أولئك الأبرار ، ونتخذهم لنا آباء وشفعاء ، ونحرص أن نعمق علاقتنا بهم ، وكأنهم أحياء يعيشون معنا على الأرض ، نتحدث إليهم ونطلبهم .

* * *

ومن محبتنا لهم ولسيرتهم ، نتسمى بأسمائهم .

ونشكر الله أنه فى أيامنا هذه ، كثر التسمى بأسماء القديسين ، نسمى بها أطفالنا ، لينشأوا محبين للقديسين ، وأيضاً اعترافاً منا بمحبتنا لهم وإعجابنا بسيرتهم ... ونفس الوضع حينما يدخل أحد فى حياة التكريس ، راهباً أو كاهناً ، يتسمى باسم أحد هؤلاء القديسين ، إعترافاً منا بالسيرة المقدسة التى لهذا الإسم الحسن .

وأود فى هذا المقال أن أسجل بعضاً من التأثير الروحى لسير القديسين :

* * *

التأثير الأول هو القدوة

وهذا ما قاله القديس بولس الرسول « اذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله . انظروا إلى نهاية سيرتهم ، فتمثلوا بإيمانهم » (عب ١٣ : ٧) .

وهنا نجد أمامنا منهجاً واسعاً جداً . فكل فضيلة يريد إنسان أن يقتنيها ، يجد مجموعة من القديسين يرشدونهم بحياتهم إلى كيفية السلوك فيها ، ويقدمون لنا مثالاً عملياً ، وحافزاً يجذبه إليها ... على أننى أحب هنا أن أضع ملاحظة هامة وهى :

* * *

علينا أن نقتدى بالقديسين فيما هو ممكن لنا .

فمثلاً قد لا تكون حياة الاستشهاد متاحة . ولكننا نقتدى بالشهداء فى قوة إيمانهم ، فى شجاعتهم ، فى احتمالهم للإيمان ، وفى الاستعداد للأبدية ، وعدم محبة العالم ولا التمسك به ... وكل هذا ممكن لنا .

وقد لا نستطيع الصلاة الدائمة ، كما كان يفعل القديس أرسانيوس الكبير ، أو القديس مقاريوس الاسكندرانى .. ولكن على الأقل ليكن لنا محبة الصلاة والاستمرار فيها على قدر قامتنا الروحية .

ولنعلم أن حياة قديسى البرية غير حياتنا فى العالم . فلا نقلدهم فى طى الأيام صوماً ، الأمر الذى أتقنوه بعد سنوات طويلة من التدريب الروحى ، وساعدتهم عليه حياة السكون ...

* * *

إنما ليكن اقتداؤنا بهم فى تلك الفضائل العالية تحت ارشاد روحى ، وبتدرج حكيم .

وهناك فضائل أخرى متاحة للجميع ، مثل الاتضاع ، والوداعة ، والهدوء ، وخدمة الآخرين واحتمالهم ، وعدم الغضب ، وما يشبه ذلك .

أما الصمت الكامل فلا يناسبك ، إنما تأخذ منه : الكلام عند الضرورة ، والكلام بقدر، واختيار الكلمة المناسبة ، والكلمة البناءة النافعة ...

فلا تقلد الفضيلة تقليداً كاملاً لا يناسبك ولا تقدر عليه . ولا ترفضها بالتمام فى يأس . وإنما خذ منها بقدر، و بحكمة ، و بتدرج ، وتحت إرشاد ...

* * *

خذ الفضيلة فى روحها ، لا فى شكلها :

فحينما تقرأ مثلاً عن قديسي التوبة، حاول أن تكون مثلهم فى حرارة توبتهم ، وفى عدم عودتهم مطلقاً إلى الوراء . وتمثل بهم فى انسحاق قلوبهم وفى دموعهم . ولكن لا تقلّد تقليداً حرفياً الذين قادتهم التوبة إلى الرهبنة مباشرة مثل بيلاجية ومريم القبطية وموسى الأسود، وأوغسطينوس ...

خذ محبة التائب لله ، وعودته إليه ، وعمق ندمه ، واشمئزازه من الخطية ... ولكن عش فى حدود شخصيتك وامكانياتك ، وما أعطيته من النعمة ...

* * *

التأثير الثانى لسير القديسين هو تقوية الإيمان

سواء ما تقدمه سير الشهداء والمعترفين من التمسك بالإيمان ، إلى حد الموت من أجله ، أو قبول كل صنوف التعذيب ، برضى وفرح وصبر...

أو ما تقدمه سير أبطال الإيمان الذين دافعوا عن العقيدة، بكل قوة وكل فهم ، محتملين فى سبيلها السجن والنفى والتشريد وكافة ألوان الاضطهاد ، كالقديس أثناسيوس الرسولى مثلاً : الذى نفى عن كرسيه أربع مرات ، واتهموه اتهامات شنيعة ، وصدرت ضده أحكام، وقيل له « العالم كله ضدك يا أثناسيوس » ...

* * *

نقرأ عن ذلك فيتبكت هذا الجيل ، الذى قد لا يبالى بالخلاف فى المذهب أو العقيدة ، و ينسى ما تحمله القديسون من آلام فى سبيل ذلك !!

كانت المجامع المحلية والمسكونية تقام بسبب نقطة خلاف واحدة . و يبذل

القديسون كل جهدهم فى الدفاع عن الإيمان وفى إثبات العقيدة السليمة. والآن من أجل زواج أو طلاق، يمكن أن يغير إنسان مذهبه، بكل سهولة وبلا مبالاة، أو بجهل !! أو يختلف شخص مع أحد رجال الكهنوت، فيترك الكنيسة كلها، بكل إيمانها وعقيدتها. ولا يبالى بكل جهاد القديسين فى سبيل ذلك الإيمان...

* * *

لذلك نحن محتاجون إلى قراءة سير القديسين أبطال الإيمان، لتغرس فى نفوس الجميع أهمية الإيمان والثبات فيه، ونبذ ما يسمى باللاطائفية !!

إن الكنيسة ليست طائفة، ولا هى مجموعة طوائف، ولكنها جماعة المؤمنين بإيمان سليم فى كل تفاصيله...

هذا الإيمان الذى استشهد من أجله قديسون فى جميع الأجيال، والذين تألم بسببه وتعذب عدد كبير من القديسين. ومن بينهم رهبان عاشوا فى البرية الجوانية. ولكن عاشوا فى الإيمان. وما أجمل الرمز الذى يحويه تكفين الأنبا بولا السائح فى رداء البابا أثناسيوس بطل الإيمان...

التأثير الثالث لسير القديسين هو غرس مشاعر الاتضاع والانسحاق

فكلما نقرأ عن هذه القمم العالية، وما وصلوا إليه، تتضع نفوسنا فى الداخل، ونشعر أننا لا شىء إلى جوارهم...

حينما نقرأ عن القديس الأنبا ابرام فى العطاء، ألا تنسحق نفوسنا ؟! هذا الذى كان يعطى كل شىء. ولا يبقى لنفسه شيئاً. حتى أن البعض أعطاه مرة قطعة قماش أسود ليفصلها ثوباً له بدلاً من جلبابه البالى، فوهب قطعة القماش هذه لأرملة زارته... أو ماذا نقول عن الأنبا يوحنا الرحوم الذى باع كل ما كان له وأعطاه للفقراء. ولما لم يجد شيئاً يملكه، باع نفسه عبداً، وتبرع بثمن نفسه للفقراء...!! ألا تتضع نفوسنا، حينما نقارن عطاءنا بعطاء هؤلاء ؟!

* * *

حقاً إن سير القديسين تطرد من نفوسنا كل محاربات الكبرياء والمجد الباطل، إن حاربنا العدو بها.

إن حاربتنا أفكار من جهة خدمتنا، وقارنا أنفسنا بسيرة بولس الرسول الذى تعب أكثر من جميع الرسل (١كو١٥: ١٠). وبشر فى أورشليم، وفى أنطاكية، وآسيا الصغرى، واليونان، وفى رومه، ووصل إلى أسبانيا. وأسس كنائس لا حصر لها، وذاق متاعب لا توصف (٢كو١١). وكان يكتب رسائل، حتى وهو فى السجن (أف ٤: ١)... ألا تنسحق أنفسنا بهذه المقارنة وأشباهها؟!

* * *

ومهما انسحقنا لن نصل إلى اتضاع القديسين :

هؤلاء الذين على الرغم من كل فضائلهم، قيل إنهم كانوا يبكون على خطاياهم!! القديس مقاريوس الكبير بكى وأبكى كل المجمع معه. القديس موسى الأسود، القديس شيشوى، القديس باخوميوس الكبير... ماذا كان يُبكى كل هؤلاء؟

القديس أرسانيوس الذى كان يقف ليصلى وقت الغروب، والشمس خلفه، ويظل واقفاً فى الصلاة حتى تُشرق مرة أخرى من أمامه، يقال إنه سقطت رموش عينيه من كثرة البكاء. وكان يبلل خوصه بالدموع!! فأين هو اتضاعنا نحن مهما اتضعنا؟!

القديس مكاريوس الكبير مؤسس الرهبنة بالاسقيط سألوه بعد رؤيته لسائحين فى البرية الجوانية، فقال «أنا لست راهباً، ولكنى رأيت رهباناً»... !!

القصص أمامنا لا تنتهى، فلعلنا نكتفى بهذه...

* * *

إننا نحارب بالكبرياء، حينما نقارن أنفسنا بأمثلة حية، نظن أننا أعلى منها!! أما حينما نقرأ سير القديسين، فحينئذ يستد كل فم، وندرك أننا لا شيء...

التأثير الرابع لسير القديسين

أنها تعطينا روح الحكمة والإفراز

تعلمنا الطريق الصحيح الذى نسلك فيه...

ما أجمل ما نقرؤه عن داود الملك، حينما أراد أن يشترى مكاناً لبناء الهيكل.

ووافق أرونه اليبوسى أن يهبه كل شيء بلا مقابل ، حينئذ رفض داود وقال «لا ، بل أشترى منك بثمن . ولا أصعد للرب إلهى محرقات مجانية » (٢صم ٢٤ : ٢٤) .

إننا نتعلم الحكمة أيضاً من أبيجايل : كيف أنها تمكنت من توبيخ داود النبى بطريقة ربحته بها (١صم ٢٥ : ٢٣- ٣٥) .

ونتعلم الحكمة من سير آباء البرية ، حتى من الشباب. الذين فيهم أمثال القديسين يوحنا القصير، الذى قيل إن الأسقيط كله كان معلقاً باصبعه . ومثل تادرس تلميذ باخوميوس ومن حكمة الشيوخ مثل الأنبا أغاثون والأنبا ايسيذورس وغيرهم ... إن حكمة الآباء كنز لمن يتعلم ...

* * *

الدرس الخامس الذى نتعلمه من سير القديسين هو دوام النمو

إنه صعود إلى فوق بغير حدود ... مثال ذلك بولس الرسول بكل مواهبه وخدمته وصعوده إلى السماء الثالثة. ومع ذلك يقول « ليس أنى نلت أو صرت كاملاً ، ولكنى أسعى لعلى أدرك ... أنسى ما هو وراء ، وامتد إلى ما هو قدام . اسعى نحو الغرض » (فى ٣: ١٢- ١٤)

الدرجات العليا التى وصل إليها القديسون فى كل فضيلة ، تحثنا على أن نمتد إلى قدام ، ولا نكتفى مهما وصلنا . فالطريق أمامنا طويل طويل ... والنعمة مستعدة أن تأخذ بأيدينا لنقطع فراسخ أولاً ... على آثار هؤلاء القديسين ، إذ تعطينا سيرهم حرارة لا تخمد ولا تنطفىء ...

* * *

أمور أخرى كثيرة نتعلمها من تأثير سير القديسين فينا

نتعلم كيف تكون اعترافاتنا أكثر دقة ، إذ نكتشف تقصيرات عديدة فى حياتنا ، بالمقارنة بسيرهم ...

نتعلم أيضاً أسلوب التخاطب مع الله فى الصلاة ، عندما نقرأ صلواتهم ، وما فيها من دالة ، وما فيها من اتضاع ، ومن حب وحرارة ...

نتعلم أيضاً أسلوبهم فى التعامل مع الناس ، وطريقتهم فى مواجهة الحروب

الروحية ، وأسلوب الانتصار عليها .

إن الذى يقرأ سير القديسين ، يصير على الدوام فى تغير مستمر ، إلى أفضل : أسلوبه يتغير، كلامه يتغير، معاملاته تتغير، محاولاً أن يصل إلى تلك الصورة عينها ...

* * *

وبعد ، أنا لست أدعى مطلقاً أننى وفيت هذا الموضوع حقه ، فهو يحتاج إلى كتاب أو كتب . وكل ما ذكرته هو مجرد أمثلة .

وأترك لك أيها القارىء العزيز هذا الخضم الواسع من التأمل فى فوائد سير القديسين .

فلا شك أن هذا الموضوع قد يشمل الحياة الروحية كلها ...





التأمل

مقدمة

ما معنى التأمل ؟ يتأمل إنسان شيئاً يعنى أنه يمعن النظر فيه ، يدقق ، يفحص ، يحلله ، يرى ما أعماقه .

التأمل إذن هو الدخول إلى العمق ، سواء فى عمل الفكر ، أو عمل الروح .

هو الوصول إلى لون من المعرفة ، فوق المعرفة العادية بكثير ، معرفة فوق الحس ، معرفة جديدة عليك ، ومبهجة لروحك . تجد فيها غذاء ومتعة روحية .

أو التأمل هو تفتح العقل والقلب والروح لاستقبال المعرفة الإلهية من فوق ، أو من داخل الإنسان ، من روح الله الساكن فيه ...

* * *

والتأمل يناسبه السكون والهدوء ، والبعد عن الضوضاء التى تشغل الحواس ، و بالتالى تشغل العقل وتبعده عن عمل الروح فيه . و يزداد التأمل عمقاً ، كلما تتحرر الحواس من الشغب الخارجى ، و يتحرر الإنسان من سيطرة فكره الخاص ، لكى يستقبل ما تعطيه الروح . و يساعد على التأمل : الرغبة فى الفهم ، والتركيز فى الإلهيات ...

* * *

وللتأمل مجالات كثيرة ، نود أن نتناولها بالتفصيل ...

فهناك تأمل فى الكتاب المقدس ، أو فى الصلاة والتراتيل والألحان . أو التأمل فى الخليقة والطبيعة ، أو فى السماء والملائكة . وفى الموت والدينونة وما بعدها . وهناك تأمل فى الأحداث ، وفى سير القديسين ، وفى الفضيلة عموماً وتفصيلاً ، وفى وصايا الله . ونوع آخر وأسمى هو التأمل فى صفات الله الجميلة ... ومنها التأمل فى المطلق ، فى الحق وفى الخير ... على أن موضوعات هذا التأمل قد تكون أكثر من أن نحصيها ، بحيث يتأمل الإنسان الروحى فى كل شىء ، حتى الماديات : يحاول أن يستخرج منها روحيات تفيده ...

مجالات التأمل

* * *

التأمل فى الكتاب المقدس

إن كلمات الوحي الإلهى، عبارة عن روح متجسدة فى ألفاظ. وليس الجسد (أى اللفظ) هو الذى ينفعك، بل الروح الذى فيه هو الذى يحيى (٢كو٣: ٦). لهذا قال السيد الرب « الكلام الذى أكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦: ٦٣).

الكلمات هى مجرد غلاف، يغلف معانى داخلها، كالصدفة التى تحوى داخلها اللؤلؤ. واللؤلؤ هو روح الكلمات. لا تكتف بالصدف، بل اكشفه وخذ ما يحويه من لآلىء. وهذا الأمر يحدث بتوسط الروح القدس، بالصلاة، إذ تقول مع المرتل « اكشف يارب عن عينىّ، لأرى عجائب من ناموسك » (مز١١٩). أو كما صلّى اليشع النبى عن تلميذه جيحزى، لكى يفتح الرب عينىّ الغلام فيبصر (٢مل٦: ١٧).

* * *

التأمل إذن هو استنارة العقل بالروح القدس.

لكى نفهم معانى الكتب المقدسة، ونتعمق فيها، وننزع القشرة الخارجية للوصول إلى اللب. وهكذا يكون التأمل فى الكتاب، هو محاولة اكتشاف الأسرار الإلهية الموجودة فى الوحى الإلهى. أو كما قيل عن عمل السيد المسيح مع التلاميذ بعد القيامة « حينئذ فتح ذهنهم، ليفهموا الكتب» (لو٢٤: ٤٥).

حقاً يارب، بنورك نعاين النور.

نريد إذن نوراً من روحك القدوس، ينير عقولنا وقلوبنا وأفهامنا، لندرك ما يقوله

الروح للكنائس (رؤ٢).

* * *

أما المجهود الذى تقوم به أفكارنا وقلوبنا وأرواحنا. فإننا نحسبه كمجرد طلب نرجو به من النعمة أن تفتح عقولنا، لتستقبل ما يسكبه فيها الروح... عملنا هو أن نقدم عقولنا إلى الله، ليملأها بالفهم الذى من عنده، وما أعمقه... نفتح له الباب، ليدخل ونتعشى معه (رؤ٣: ٢٠)... نعم نتعشى بخبز الحياة النازل من السماء (يو٦: ٣٣، ٣٥)، ونحيا به، بكل كلمة تخرج من فم الله (مت٤: ٤).

* * *

إذن الخطوة التى يقوم بها الذهن فى التأمل، هى فتح الباب للروح.

ومن هنا فإن بعض الآباء يجعلون التأمل فى عمقه خارجاً عن المجهود البشرى، باعتباره هبة من الروح القدس. وكما يقول المرتل فى المزمور «فتحت فمى واقتبلت لى روحاً» (مز١١٩).

أو التأمل هو تلمذة على الروح القدس. هو تدرب كيف تأخذ من الروح ما يريد أن يعطيك.

وليس هو مجرد كد للذهن ليفهم، ولا هو مجرد اعتماد على ذكائنا وقدراتنا، فقد قال الكتاب «وعلى فهمك لا تعتمد» (أم٣: ٥)

* * *

إن التفكير العقلى المحض، الخالى من عمل الروح، لا ينتج تأملاً... إنه قد ينتج علماً أو فلسفة، وليس تأملاً.

وهنا نفرق بين العالم والعابد، بين الدارس والمتأمل، بين الباحث فى الكتب والمستقبل من الروح.

إن التأمل ليس هو مجرد فكر، إنما هو خلط الفكر بالقلب، وترك العقل كمجرد أداة فى يد الروح. ثم تبتهل الروح لتأخذ من روح الله. وما تأخذه، تعطيه للعقل عن طريق القلب.

وحينئذ ندرك قوة الكلمة، لأنها تأخذ من الروح قوة... فلا تقف يا أخى عند مستوى العقل، بل اتخذ العقل وسيلة توصلك إلى الروح. والروح توصلك إلى الله، الذى عنده كل كنوز المعرفة، فيعطيك...

* * *

القارىء السطحى قد يقرأ كثيراً ولا يتأمل .

أما القارىء الروحى ، فالقليل من قراءته يكون له نبع تأملات لا ينضب .

إنه لا يركز على كثرة القراءة ، إنما على ما فيها من تأملات... وقد تستوقفه كلمة أو عبارة ، فيغوص فى أعماقها ، و يظل سابحاً فى تلك الأعماق . وهو يقول مع المرتل « لكل كمال رأيت منتهى. أما وصاياك فواسعة جداً » (مز ١١٩)... قد يفتح الله قلبه ، فيرى فى الكلمة الواحدة كنزاً عظيماً مهما اغترف منه لا ينتهى ، كما قال داود النبى فى صلواته « فرحت بكلامك كمن وجد غنائم كثيرة »...

* * *

ليتكم كتدريب روحى ، تأخذون كل يوم آية للتأمل .

آية من الكتاب ، تكون قد تركت فى نفسك تأثيراً أثناء القراءة . ولكن لا تقف عند حد التأثير ، إنما احفظ هذه الآية ، وخذها مجالاً لتفكيرك وتأملك ، معطياً فرصة لروح الله أن يمنحك من خلالها شيئاً ... أو اتخذ قصة معينة من الكتاب مجالاً لتأملك ...

* * *

إن معاملات الله مع الناس مجال واسع جداً للتأمل ...

سواء معاملة الله لقديسيه الذين أحبهم أو أحبوه ، وكانت بينه و بينهم دالة... أو حتى معاملة الله للخطاة ، الذين انتفعوا من طول أناة الله وغنى لطفه فتابوا ، أو الذين عاندوا وتقست قلوبهم ...

شخصيات الكتاب أيضاً تصلح مجالاً للتأمل.... وما أكثر الكتب التى وضعت فى هذا المجال ...

* * *

يساعدك على التأمل أيضاً ما تكون قد حفظته من آيات كثيرة من الكتاب المقدس .

تجد نفسك كلما بدأت التأمل ، تأتيك تلك الآيات مرتبة متناسقة ، يكمل بعضها بعضاً . وكل آية تقدم لك معنى خاصاً . وكلها معاً تقدم لك باقة جميلة من التأملات . ونتذكر فى تناسقها معاً قول الرسول :

« قارنين الروحيات بالروحيات » (١ كو ٢ : ١٣) .

وبهذا تشغل نفسك أثناء النهار بفكر روحي ...

ويظل هذا الفكر يتعمق فيك . والفكر يلد فكراً من نوعه ، ويلد أيضاً الكثير من المشاعر والعواطف والتأملات . ويصبح قلبك نقياً تعمل فيه كلمة الله ، وتنتشر فيه التأملات الروحية ... كما تصحبك أيضاً هذه التأملات أثناء الصلاة . بل تطرأ على ذهنك كذلك أثناء حديثك مع الناس . ويلمح المستمعون إليك عمقاً لا يقف عند المستوى السطحي فى أى شيء .

* * *

وهكذا ينفعك التأمل فى تعميق حياتك الروحية .

ولا يقتصر على مجرد الفكر أو الإحساس الروحي ، أو الشعب الداخلي بكل ذلك ، أو اللذة بالمعرفة .... إنما يتطور ليكون له تأثيره على الحياة العملية ...

لذلك إن قرأت ، لا تقف عند حدود القراءة والتأمل فيما تقرؤه فى الكتاب من الوصايا أو سير الأنبياء والآباء ، ما تقرؤه ، إخلطه بفكرك وروحك وقلبك ... وطبق تأملاتك على حياتك ، واستخرج منها منهجاً تسير عليه ، ويدخل فى علاقتك مع الله والناس ...

* * *

ولتكن قراءتك مصحوبة بالصلاة ...

كما قال داود النبي فى المزمور الكبير « اكشف عن عينيّ لأرى عجائب من ناموسك » ... وهنا نرى أن التأمل يحتاج إلى كشف إلهي ... وكثيراً ما يقف الإنسان فى حالة انبهار أمام ما يكشفه الله له ... وقد يقرأ فصلاً من الكتاب يكون قد قرأه من قبل . ولكن تنكشف له معانٍ عديدة لم تخطر على ذهنه مطلقاً فى قراءته السابقة ...

وقد يحدث له هذا أيضاً ، أثناء قراءة أو صلاة المزامير . فتنكشف له معاني جديدة . ويتكرر الأمر إذ يصلي نفس المزمور بعد أيام ، فيدرك منه معاني أخرى لم يدركها من قبل ...

وهكذا يفتح له الله طاقات من نور تشرق على ذهنه .

لا يعزو ذلك إلى ذكائه أو معرفته ، وإنما هى موهبة من الله يسكبها عليه أثناء الصلاة أو القراءة أو التأمل ، وتكون الصلاة مصدراً للتأمل ، أو مصحوبة بالتأمل .

كما يكون التأمل مصحوباً بالصلاة... وتتسع أمامه معانى الآيات، حتى ما يجد لها حدوداً. إنما فى كل حين يختبر لها أعماقاً...

* * *

إن لم تكن لك موهبة التأمل، إقرأ تأملات الآباء القديسين.

قديس عظيم مثل القديس يوحنا ذهبى الفم، له كتاب فى تفسير انجيل متى، وآخر فى تفسير انجيل يوحنا وكتب أخرى فى تفسير أعمال الرسل ورسائل بولس الأربع عشرة... هذه الكتب مملوءة بالشرح وبالتأملات. تتبعه فى أسلوب شرحه وتأمله، وتعلّم...

قديس عظيم آخر هو القديس أوغسطينوس، عميق جداً فى تأملاته، وفى رقة أسلوبه. له كتاب تأملات فى الرسالة الأولى للقديس يوحنا الرسول، وله كتاب تأملات فى المزامير، وعظات على فصول كثيرة من الأناجيل. وغالبية كتاباته حافلة بالتأملات. اقرأ له، وتعلّم...

وهكذا مع باقى القديسين فى كتاباتهم، وبخاصة الذين اشتهروا بالتأمل، وليس فقط بعمق التعليم... مثل القديس مارافرام السريانى، والقديس يعقوب السروجى، والقديس ديديموس الضرير وغيرهم. اقرأ لهم، وانتفع بتأملاتهم، واتخذهم مدرسة فى التأمل...

* * *

بل تدرب أيضاً على الآباء الذين اشتهروا بالتفسير الرمزى للكتاب...

ستجد عمقاً كبيراً فى كتابات هؤلاء الآباء، لأنهم لا يقتصرون على المعنى الحرفى لآيات الكتاب، إنما يدخلون إلى العمق، وإلى ما تحمله الآيات من اشارات بعيدة لأمور أخرى...

وبهذا أيضاً يمكن فهم أسفار النبوات، وسفراً مثل نشيد الأناشيد... ويمكننا أن نفهم ما ورد فى الكتاب عن الذبائح والتقدمات والأعياد، والشرائع الخاصة بالنجاسات والتطهير، وشرائع أخرى قال عنها بولس الرسول إنها كانت «ظلاً للأمور العتيدة» (كو٢: ١٧).

* * *

ادخل فى تدريب التأمل، لأنه يشغل ذهنك بشىء صالح، بدلاً من أن تترك

الفكر ليسرح فى أمور خاطئة . أو يسرح فى أمور زائلة ... لا نفع فيها ...

وتأكد أن ذهنك لن يكف عن التأمل . إنما يتوقف تأمله على نوع المادة المقدمة إليه ، خيراً كانت أم شراً . سواء قدمتها أنت له من داخل قلبك وفكرك ، أو قدمتها لك البيئة المحيطة بك ...

فالأفضل أن تقود تفكيرك فى تأملاته ...

* * *

واعرف أن موهبة التأمل هى للكل ، وليست للقديسين فقط ، بل حتى للخطاة ...

أولئك قد تكون لهم قدرة عجيبة على التأمل ، وإنما فى مجال الخطية . فالخاطى الذى يحب خطية معينة ، ما أسهل أن يسرح فيها و يتأملها بعمق ، وتملك على فكره وقلبه ومشاعره ، و يؤلف فيها قصصاً وأفكاراً . كما كان يفعل بعض الأدباء والشعراء ومؤلفو الروايات . إنه لون من التأمل ، ولكنهم استخدموه فى الخطية ...

أما القديسون فتأملاتهم تكون فى موضوعات روحية . كذلك فإن الخطاة الذين يتمتعون بموهبة التأمل ، إذا تابوا ، وأداروا موهبة تأملهم فى مسار روحى ، حينئذ يظهر عمقهم وتأثيرهم الطيب . ونذكر كمثال لذلك القديس أوغسطينوس فى حياة التوبة والنمو الروحى ، وحتى فى كتاب اعترافاته وما فيه من عمق ...

والقراءة إحدى الوسائل التى توجد التأملات ...

وقد حدثناك عن القراءة فى الكتاب المقدس ... ونضيف إلى ذلك أيضاً قراءة الكتب الروحية وسير القديسين ، التى تحتاج منا إلى شرح أوفر.

* * *

إنما تذكر باستمرار أن التأمل يعودك العمق .

و يبعدك عن السطحية ، و يقدم لك غذاء روحياً نافعاً لبنيانك الداخلى ، ويمنحك حكمة ، ويجعلك تتلامس مع عمل الله فيك ...

* * *

التأمل فى الطبيعة

أول آية وردت فى الكتاب المقدس عن التأمل ، هى ما قيل عن أبينا اسحق بن ابراهيم إنه «خرج اسحق ليتأمل فى الحقل عند إقبال المساء» (تك ٢٤ : ٦٣) . ولعل هذا يقدم لوناً من التأمل هو : التأمل فى الطبيعة .

* * *

ليس مجرد التأمل فى جمال الطبيعة ، إنما بالأكثر فيما تقدمه من روحيات ، حسب قول المرتل فى المزمور: السماوات تحدث بمجد الله ، والفلك يخبر بعمل يديه (مز ١٩ : ١) . وهنا نتدرج من الطبيعة إلى عظمة الله خالقها ، أو إلى حنو الله المهتم بها . استمع إلى الشاعر وهو ينشد :

هذى الطبيعة قف بنا يا سارى

حتى أريك بديع صنع البارى

لقد كانوا يدرسون الفلك قديماً فى الكليات اللاهوتية . لأن النظام العجيب الدقيق الذى فيه ، يثبت وجود خالق كلى القدرة استطاع أن يوجده . حتى أن أحد الفلاسفة لقبه بالمهندس الأعظم ...

فإن كانت السماء المادية مجالاً عظيماً للتأمل ، فكم تكون السماء التى هى عرش الله (مت ٥ : ٣٤) .

وهنا ما أجمل ما رآه يوحنا الحبيب فى سفر الرؤيا ، وبخاصة حينما قال «أبصرت وإذا باب مفتوح فى السماء» (رؤ ٤ : ١) . يضاف إلى هذا ما شرحه عن أورشليم السمائية ، مسكن الله مع الناس (رؤ ٢١) ... إن التأمل فى السماء والسماويات ، لاشك يرفع عقل الإنسان وقلبه إلى فوق ، ويسمو به كثيراً عن مستوى المادة والجسدانيات ...

* * *

ويرتبط بالتأمل فى السماء ، تأمل آخر فى الملائكة ...

وفى كل القوات السمائية : الشاروبيم والسارافيم ، والأرباب والعروش ، ورؤساء الملائكة ، وتلك الألوف والربوات التى أمام العرش الإلهى ، وكذلك الملائكة

« المرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص » (عب ١: ١٤). ما طبيعة الملائكة؟ وما هى روحيتهم وقدسيتهم ومحبتهم وطاعتهم (مز١٠٣) (مز١٠٤)؟ وما هى خدمتهم لله وللناس؟ وماذا ستكون علاقتهم بنا فى الأبدية؟ بل ما هى قصصهم التى وردت فى الكتاب وفى سير القديسين... وهنا يسبح الفكر فى عالم روحى...

فإن كان هذا التأمل عميقاً علينا ...

لنتأمل فى أرواح القديسين الذين انتقلوا ... كما حكى لنا الرب عن أبينا ابراهيم، ولعازر المسكين فى حضنه. سواء فى ذلك تأملنا فى القديسين الذين مع الرب فى الفردوس (لو٢٣: ٤٣)، أو الذين يرسلهم الرب فى خدمات فى الأرض مثل العذراء ومارجرجس وغيرهما. ودرجات كل هؤلاء، وكيف أن نجماً يفوق نجماً فى المجد (١كو١٥: ٤١.)...

ثم ماذا عن القيامة والأجساد الروحانية النورانية السماوية (١كو١٥: ٤٢-٥٠)؟ وماذا عن الأبدية والمجد العتيد، والملكوت، ومراتب القديسين وعلاقاتهم، والملك المعد لنا فى النعيم الأبدى.

فإن لم نستطع كل هذا لنهبط إلى الأرض، ونتأمل فى الخليقة المحيطة بنا، كما قال الرب:

تأملوا زنابق الحقل ...وطيورالسماء (مت ٦: ٢٨، ٢٦).

ولم يقصد الرب التأمل الحسى فى زنابق الحقل، من حيث جمالها، وتعدد أنواعها وألوانها وعطرها وتناسقها... ولكن الارتفاع فوق الحس إلى الله الذى خلقها هكذا، بحيث ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها... وهنا يقود التأمل إلى عناية الله العجيبة بكل مخلوقاته، كما يقودنا أيضاً إلى الإيمان بعناية الله وإلى الاتكال عليه فى غير قلق...

ولو تأملنا الفارق الكبير بين الزهور الطبيعية وغيرها من الزهور الصناعية، التى مهما إفتن الإنسان فى صنعها، تبقى بلا حياة، بلا رائحة، بلا نمو. بل لا يمكن أن تصل فى ألوانها إلى تلك الطبيعة، مما يدل على قدرة الله العجيبة. ونفس الوضع بالنسبة إلى طيور السماء فى تعدد أنواعها وأشكالها ونغمات أصواتها، وطباعها ورحلاتها، وقناعتها... وتضع إلى جوارها قول المزمور « نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ

الصيادين . الفخ انكسر ونحن نجونا (مز ١٢٤).

* * *

حقاً ما أحن الله : المعطى البهائم طعامها ، وفراخ الغربان التى تدعوه (مز ١٤٧ : ٩).

بل يقول الرب « تأملوا الغربان : إنها لا تزرع ولا تحصد ، والله يقيتها» (لو ١٢ : ٢٤). نعم ، الغربان السوداء اللون، التى يتشاءم البعض منها... يهتم بها الله هذا الاهتمام ، بل يعهد إليها بمهمات : غربان كانت تعول إيليا النبى فى زمن المجاعة (١مل ١٧ : ٦). وغربان أخرى كانت تأتى بطعام للقديس الأنبا بولا السائح... الله يرسلها إلى قديسيه ، فتطيع وتعرف وتنفذ مشيئة الله من جهته... وهنا تخطو خطوات فى تفكيرك ، أعمق من الفكر السطحى أثناء القراءة...

إن علاقة الله بالحيوانات والطيور موضوع طويل ليس الآن مجال الحديث فيه . والتأمل فيه موضوع أطول...

على أنه حتى الحشرات الضئيلة ، وهبنا الله مجالاً للتأمل فيها ، فقال الكتاب :

« اذهب إلى النملة أيها الكسلان . تأمل طرقها ، وكن حكيماً» (أم ٦ : ٦).

حقاً ، إننى لم أر فى حياتى كلها نملة واحدة واقفة بلا عمل... إنها دائمة الحركة ، دائمة العمل ، لا تهدأ . كما أن جماعات النمل درس عجيب فى التعاون، لمن يتأمل عملها الجماعى ، فى حمل أشياء توازى عشرات حجمها . وهى درس أيضاً فى النظام ، إذ تسير فى طابور طويل ، متجهة نحو هدف ثابت . وباتصالات عجيبة بين بعضها البعض .

* * *

وما نأخذه من دروس فى تأمل النمل ، نأخذ مثله أيضاً فى تأمل النحل .

هذا النحل الذى أنشد فيه أحمد شوقى قصيدته :

مملكة مدبرة - بامرأة مؤمرة
تحمل فى العمال والصناع عبء السيطرة
أعجب لعمال يولون عليهم قيصرة

* * *

إن النظام المذهل الذى تعيشه مملكة النحل ، هو مجال لتأمل عميق ... كيف خلقها الله بهذه الامكانيات والقدرات ... وكيف تستطيع أن تجمع الرحيق وتصنعه شهداً ، وكيف تصنع غذاء الملكات ! وكيف تبنى خلاياها بهندسة متقنة عجيبة . وكيف تطير رحلات بعيدة بحثاً عن الزهور والرحيق ! ما أعجبها ! وما اعجب خالقها !!

* * *

إن الإنسان الروحى يستطيع أن يتخذ كل شىء مجالاً للتأمل . و يستطيع أن يستخرج من الماديات ما تحمله من دروس روحية .

أتذكر أننى فى إحدى المرات ، نشرت لكم فى كتاب (كلمة منفعة) تأملاً عن الدروس الروحية التى يمكن أن نأخذها من (نهر النيل) . ومن نقطة الماء الهينة اللينة التى إن سقطت بمداومة على صخر، تحفر فيه طريقاً ... وأيضاً عن شاطئى النهر اللذين لا يحدان حريته، إنما يحفظانه من الانسكاب . وهكذا وصايا الله وإرشاد الآباء ، لا يحدان حرية الإنسان، إنما يحفظانه من الخطأ ...

* * *

كذلك جسم الإنسان ـ وهو مادة ـ إلا أنه مجال واسع جداً للتأمل ، يدل على عظمة الخالق .

يكفى أن تتأمل قدرات كل عضو فيه، وعلم وظائف الأعضاء . المخ مثلاً وما فيه من مراكز عجيبة ، للنظر والسمع والحركة والكلام ... بحيث إذا لم يصل الدم إلى أى مركز من هذه المراكز، يبطل عمله ، و يصير صاحبه معوقاً ...

كذلك القلب ـ وهو كقبضة اليد ـ ولكنه جهاز دقيق جداً ، تتوقف عليه حياة الإنسان ، كما على المخ أيضاً . و يعوزنا الوقت إن تحدثنا عن كل أجهزة الجسم البشرى ، وكيف تعمل متناسقة فى اتزان عجيب . وبعض هذه الأجهزة إذا تلف ، لا يقدر كل التقدم العلمى على ارجاعه إلى وضعه الطبيعى ...

وهكذا فى كليات اللاهوت قديماً ، كما كانوا يدرسون علم الفلك ، كانوا يدرسون علم الطب أيضاً ، لأنه يغمق الإيمان بقدرة الله الخالق ...

إن كانت قدرات الجسد هكذا ، حسبما خلقه الله الكلى القدرة ، فماذا تكون

تأملات فى قدرات الروح ؟! على أننى أود أن أترك هذه النقطة الآن، لأتحدث فى موضوع آخر وهو:

التأمل فى الأحداث

أعنى ما تمر بنا من أحداث يومية ، وما تدل عليه من حكمة الله وتدبيره ، وتدخله وعنايته ... سواء فى عالمنا الحاضر، أو يد الله فى التاريخ ... إنه أمر يدعو إلى عميق من التأمل . وليس من صالحنا روحياً أن نمر مروراً عابراً على أحداث التاريخ، دون وقفات من التأمل .

يد الله فيما حدث لآريوس وديوقلديانوس ونيرون . يد الله التى كانت مع القديس أثناسيوس الذى وقف العالم كله ضده . يد الله مع يوستينا وكبريانوس الساحر.. يد الله التى كانت مع الآباء السواح فى وحدتهم ، والتى أرشدت بعض القديسين إلى معرفة أماكنهم ، وكتابة سيرة كل منهم قبل انتقاله ...

* * *

يد الله فى التاريخ الكنسى ، وفى التاريخ المدنى ، وفى التقائهما ، وفى تدبير كل شىء للخير... هل التاريخ هو مجرد علم وأحداث ، أم فيه أيضاً عبر ولاهوت ؟ أعنى العمل الإلهى فيه . وهذا يحتاج إلى تأمل .

أليست يد الله مع قسطنطين الملك تدعو إلى التأمل ، وكيف قادته إلى إصدار مرسوم ميلان سنة ٣١٣م الذى كفل به الحرية الدينية ، وصار نقطة تحول خطيرة فى تاريخ المسيحية وفى تاريخ الاضطهاد الدينى .

* * *

هل نستطيع أن ننكر يد الله فى الأحداث التى غيرت مصير روسيا والاتحاد السوفيتى ، وأثر ذلك فى القضاء على إلحاد استمر أكثر من سبعين عاماً ، وانتهى بسرعة عجيبة غير متوقعة ، مما يدل على تدخل يد الله فيه ...! وهل يمكن أن يمر هذا الحدث علينا ، بدون وقفة تأمل تقوى الإيمان بالله ، و بتدخله ... هو صانع العجائب وحده ...

إن فصل التاريخ عن الله ، هو عمل غير روحى ، أما الروحيون فيتأملون يد الله فى التاريخ .

ننتقل إلى موضوع آخر فى التأمل وهو :

التأمل فى الصلاة

سواء فى الصلوات الخاصة ، أو صلاة القداس الإلهى ، أو صلاة المزامير، أو فى الترانيم والتسبحة وكلما كان للمصلى تأمل سابق فى المزامير وقطع الصلاة، على هذا القدر تكون صلاته أعمق و بفهم...

وأتذكر أننى أصدرت لكم كتاباً عن التأمل فى المزمور الثالث (من صلاة باكر) «يارب لماذا ؟!»... وكتاباً آخر عن المزمور ١٩ (أول مزامير الساعة الثالثة) «يستجيب لك الرب فى يوم شدتك»... وكتاباً آخر عن تأملات فى بعض مزامير الغروب... كما أصدرت لكم كتاباً عن التأملات فى صلاة الشكر والمزمور الخمسين. وأرجو أن نتخذ باقى المزامير مجالاً لتأملاتنا ، وتصدر لكم فيها كتب أخرى...

* * *

* * *

ما كان الآباء يتلون عبارات الصلوات بطريقة سطحية سريعة ، بل كما قال ماراسحق عن صلواتهم :

« من حلاوة الكلمة فى أفواههم ، ما كانوا يستطيعون بسهولة أن يتركوها إلى كلمة أخرى ».

كانوا يصلون بفهم، و يغوصون إلى أعماق المعانى فى تأمل ، يعطى صلواتهم روحاً وحرارة وعمقاً . وفى هذا تختلط مشاعرهم بعبارات الصلاة، فتصدر الكلمات من قلوبهم . ولا يهتمون بطول الصلوات أو بكثرتها ، وإنما بما فيها من تأمل وعمق . وهكذا قال ماراسحق لمن يريد أن يسرع فى صلواته ليتلو أكبر عدد من المزامير:

إذا حوربت بهذا ، فقل : أنا ما وقفت أمام الله لكى أعدّ ألفاظاً...

* * *

نفس الكلام نقوله أيضاً عن الترتيل والتسبحة... و بخاصة التراتيل التى لها روح الصلاة... مثل ترتيلة «مراحمك يا إلهى كثيرة جداً»... ومثل تسبحة «يا ربى يسوع

المسيح، مخلصى الصالح».. حقاً إن الذين يسرعون فى صلواتهم وتسابيحهم، إنما يفقدون عمقها وتأملاتها. وتتحول من كونها صلاة، لتصبح مجرد تلاوة...

إن لم تكن لك موهبة التأمل فى الصلاة، أنصحك أن تقرأ تأملات الآباء فى الصلوات والمزامير. وما أكثرها...

ننتقل إلى نقطة أخرى فى التأمل وهى:

التأمل فى الموت والدينونة

وهذا ما تعلمنا الكنيسة إياه فى صلاة النوم، إذ يقول المصلى «هوذا أنا عتيد أن أقف أمام الديان العادل مرعوباً من أجل كثرة خطاياى» «لو كان العمر دائماً، وهذا العالم مؤبداً، لكان لك يا نفسى حجة واضحة. لكن إذا انكشفت أعمالك الرديئة وشرورك القبيحة أمام الديان العادل، فأى جواب تجيبين، وأنت على سرير الخطايا منطرحة، وفى إخضاع الجسد متهاونة ؟!»...

وفى صلاة نصف الليل، توجهنا الكنيسة إلى التأمل فى نهاية العالم، ومجىء المسيح الثانى، ومصير كل من العذارى الحكيمات والجاهلات... وإلى وجوب السهر الروحى...

التأمل فى صفات الله

إن صفات الله - تبارك اسمه - موضوع عميق للتأمل، يقدمها لنا القداس الغريغورى، والطلبة الأخيرة فى ختام كل صلاة «ارحمنا يا الله ثم ارحمنا» حيث نتأمل «إلهنا الصالح، الطويل الروح، الكثير الرحمة، الجزيل التحنن، الذى يحب الصديقين و يرحم الخطاة»... كذلك نجد هذا التأمل فى تسبحة الثلاثة تقديسات، حيث نقول «قدوس قدوس قدوس. السماء والأرض مملوءتان من مجدك الأقدس» (أش ٦).

وتأملاتنا فى صفات الله تشمل نوعين: صفاته من جهة علاقتنا بنا، وصفاته الخاصة به وحده كإله... مثل الأزلى، الذى لا يحد الخالق، الخالق، القادر على كل شىء، الموجود فى كل مكان... وكلها مجال عميق للتأمل...

موضوعات أخرى للتأمل

★ **يمكن التأمل فى إحدى الفضائل :**

كأن تتأمل مثلاً فى الحكمة والإفراز، أو فى فضيلة الرحمة أو المحبة أو الاحتمال. أو فى الصلاة والصلة بالله. تتأمل عمق الفضيلة وأسبابها داخل النفس، ونوعية التعبير عنها... وما يتعلق بذلك كله من آيات الكتاب المقدس وقصصه.

★ **يمكن أن تتأمل فى أسرار الكنيسة :**

مثل سر المعمودية، وما يحدث فيه من نعم خفية شرحتها آيات الكتاب المقدس... أو سر المسحة المقدسة وعمل الروح فيه وفينا... وهكذا مع باقى الأسرار. وما يكمن فى وضع اليد من عمل إلهى.

★ **يمكن التأمل فى إرادة الله وحسن تدبيره :**

أو فى عجائب الله (أى ٣٧ : ١٤) ويده القوية. وفى طرق الرب وأسلوب تعامله مع الخطاة ومع القديسين. وكما يقول داود النبى للرب « بصنائع يديك أتأمل » (مز١٤٣ : ٥).

التأمل فى سير القديسين

إنه موضوع جميل ونافع جداً. وتأمل سير القديسين غذاء شهى للنفس، لست أريد أن أمر عليه فى عجالة، بل أحب أن أخصص له موضوعاً قائماً بذاته، إن شاء الرب وعشنا.


الباب الخامس
التداريب
الروحية

فوائد التداريب الروحية

ليس الدين مجرد معلومات ، ولا مجرد امتلاء من المعرفة الدينية . فالمعرفة وحدها لا تكفى . ماذا يستفيد الإنسان إن كان يعرف كل المعلومات عن الفضيلة، دون أن يسلك فيها ؟!

إننا نقرأ الكثير ، ونستمع إلى الكثير . والمهم ماذا نفعل ؟

فى كل قداس ، نستمع إلى فصل من الإنجيل ، وقراءات من رسائل بولس الرسول ، ومن الرسائل الجامعة ، ومن سفر أعمال الرسل . ونستمع أيضاً إلى سير القديسين فى السنكسار، ونستمع إلى عظة . وإن حضرنا رفع بخور باكر، ورفع بخور عشية ، نستمع إلى فصول أخرى من الكتاب ، بالإضافة إلى ما نقرؤه فى بيوتنا وفى الاجتماعات الروحية... ولكن ما تأثير كل ذلك على حياتنا العملية ؟ هل اكتفينا بالمعرفة ؟ أم اهتممنا بأن نحول تلك المعرفة إلى حياة، حسب قول السيد المسيح له المجد « الكلام الذى أقوله لكم هو روح وحياة » (يو٦ : ٦٣) . كيف يكون ذلك التحويل :

★ ★ ★

بالتداريب الروحية ، تتحول المعرفة إلى ممارسة . وتتحول المعلومات إلى عمل .

كذلك نلاحظ أن كثيرين يترددون على الكنيسة ، و يعترفون و يتناولون ، وربما يخدمون أيضاً . ولكنهم مع ذلك لهم ضعفات ثابتة ، تكاد تصل إلى مستوى الطباع ، مستمرة معهم على مدى سنوات طو يلة !! فلماذا ؟... لعل السبب فى ذلك أنهم لم يضعوا تلك الضعفات موضع الاهتمام الخاص ، بأن يدربوا أنفسهم على تركها ، و يلاحظوا مدى تنفيذ التدريب ...

و بنفس الأسلوب نقول إن هناك كثيرين لهم خطايا يكررونها فى كل اعتراف . اكتشفوها ، وعرفوها ، واعترفوا بها . ومع ذلك استمروا فيها . ذلك لأنهم لم يدربوا أنفسهم عملياً على تركها .

★ ★ ★

ومن هنا كانت أهمية التداريب الروحية : يدخل بها الإنسان فى مواجهة عملية مع نفسه : إما لترك خطاياه ، أو لاكتساب فضائل ، أو للنمو روحياً ...

يحوّل بها المعرفة الروحية إلى حياة . وكذلك أيضاً يحول بها الاشتياقات الروحية إلى حياة روحية ...

وفى التدريب العملى : يعرف حقيقة نفسه ، ومن أين يأتيه الخطأ ، أسبابه ومصادره . و يدخل فى طريق المقاومة . و يعرف العقبات وأسلوب الانتصار عليها . ولا يقف عند حد المعرفة ، ولا حتى عند حد العاطفة الدينية الداخلية .

* * *

وفى التداريب يجاهد مع نفسه ، ومع الله ...

يستمع إلى توبيخ الرسول وهو يقول «لم تقاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية» (عب ١٢ : ٤) . فيقاوم نفسه و يصارع . وفى ذات الوقت لا يعتمد على ذراعه البشرى ، وإنما يمزج التداريب بالصلاة طالباً معونة من فوق ، حسب قول الرب لنا « بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥) . وفى ذلك كله يضع نفسه وتداريبه تحت إشراف روحى من مرشد حكيم مختبر ، لأن الكتاب يقول « وعلى فهمك لا تعتمد» (أم ٣ : ٥) .

* * *

والكتاب المقدس يقدم لنا أمثلة من التداريب .

هوذا القديس بولس الرسول يقول « تدربت أن أشبع وأن أجوع . أن استفضل وأن أنقص» (فى ٤ : ١٢) . وقال أيضاً «قد صارت لنا الحواس مدربة» (عب ٥ : ١٤) .

الله درّب قديسيه

★ قيل عن موسى النبى « وكان موسى حليماً جداً ، أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض» (عد ١٢ : ٣) . فهل تظنون أنه وُلد هكذا ؟! كلا ، بل إنه بدأ حياته فى الخدمة شديداً عنيفاً ، حينما قتل الرجل المصرى وطمره فى الرمل (خر ٢ : ١٢) . ولكن الله أخذه على البرية ، ودرّبه فى عمل الرعى على اللطف والهدوء

والوداعة ، على مدى أربعين عاماً ، حتى وصل إلى ما وصل إليه ...

★ هل تظنوا أن يوحنا الحبيب بدأ حياته هكذا بما عرف عنه من حب ، حتى أنه قال « الله محبة . من يثبت فى المحبة ، يثبت فى الله ، والله فيه » (١يو٤ : ١٦) . كلا . بل كان هو وأخوه يعقوب شديدين ، تربيا فى مدرسة يوحنا المعمدان الشديد ، الذى كان يوبخ فى عنف (مت٣: ٧- ١١) . وقد لقبهما الرب « بوانرجس » أى « ابنى الرعد » (مر٣: ١٧) .

وهما اللذان لما رفضت إحدى قرى السامريين أن تقبل الرب ، لأن وجهه كان متجهاً نحو أورشليم ، قالا له « أتريد يارب أن تقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً ؟ » . فانتهرهما الرب وقال لهما « لستما تعلمان من أى روح أنتما . لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس ، بل ليخلص » (لو٩ : ٥٢- ٥٦) .

ولكن الرب أخذ يدرب ابن الرعد ، حتى تحول إلى شعلة من حب . و بدايته لم تكن هكذا .

* * *

كذلك القديسون لم يصلوا إلى درجاتهم العالية دفعة واحدة ، بل تدربوا حتى وصلوا .

تدربوا بجهاد وتعب ، وعلى مدى زمنى . فلا يجوز أن نأخذ ما كتب عن قممهم الروحية كأنه نقط بدء !! ولا نبدأ نحن بما وصلوا إليه فى نهاية جهادهم ، بل نتدرج .

★ أرسانيوس العظيم ، فى بدء رهبنته ، كان يخطىء فى طريقة تنقية الفول التى يعرفها ذلك المصرى الأمى ، حتى أخذ درساً وقال « هذا القلم على خدك يا أرسانى » . و بالتدريب والمدى الزمنى ، وصل إلى ما وصل إليه من قداسة .

★ وموسى الأسود الذى شاهده أحد الآباء فى رؤيا ، والملائكة يطعمونه شهد العسل ، لم يصل إلى حياة المحبة والخدمة والوداعة وإضافة الغرباء دفعة واحدة ، بل حينما بدأ كان منظره مخيفاً . وظل القديس إيسيذورس يدربه ، حتى وصل إلى ما وصل إليه من قداسة واحتمال .

* * *

حتى فى مجال الخدمة ، درّب الرب تلاميذه أيضاً ...

أرسلهم فى تدريب عملى . ورجعوا إليه فعرضوا نتائج خدمتهم . وكانوا فرحين لأن الشياطين تخضع لهم باسمه !! فصحح لهم هذا الخطأ ، وقال لهم «لا تفرحوا بهذا ... بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم قد كتبت فى السموات» (لو١٠ : ١٧- ٢٠) .

كذلك درّبهم على أمر آخر ، وهو عدم الاهتمام بمن يكون الأول فيهم . وقال لهم «لا يكون هكذا فيكم . بل من أراد أن يكون فيكم عظيماً ، فليكن لكم خادماً . ومن أراد أن يكون فيكم أولاً ، فليكن لكم عبداً . كما أن ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدم ، بل ليخدِم و يبذل نفسه فدية عن كثيرين» (مت٢٠ : ٢٦- ٢٨) .

نصائح فى التدريب

لهذا كله ، ينبغى علينا ألا نكتفى بالمعرفة الدينية ، بل نهتم بالأكثر بالعمل ، مدربين أنفسنا على تنفيذ الوصايا .

إن الرب بعد أن ألقى العظة على الجبل ، ختمها بقوله : «كل من يسمع أقوالى هذه و يعمل بها ، أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر... وكل من يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها ، يشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل» (مت٧ : ٢٤- ٢٦) . وهكذا ركز الأهمية على العمل بما نسمع . وأكد هذا بقوله أيضاً «وليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات ، بل الذى يعمل إرادة أبى الذى فى السموات» (مت٧ : ٢١) . وهكذا يصلى الكاهن فى أوشية الإنجيل «اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نسمع ونعمل بأناجيلك المقدسة بطلبات قديسيك» .

إذن فلنتدرب لكى نعمل بوصاياه وتعليم الإنجيل .

دلائل التداريب

التداريب الروحية تدل على أن صاحبها سهران على خلاص نفسه . يكتشف أخطاءه ونقائصه ، و يتدرب على تفاديها .

لابد إذن أن تكتشف أخطاءك ، أو الأخطاء التى يكشفها لك غيرك . لأنه بدون

اكتشاف أخطائك ، لا يمكنك أن تدرب نفسك على تركها ، إذ « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى » (مت ٩ : ١٢) . فلا تتضايق إذن ممن يظهر لك عيباً فيك استفد من هذا الكشف لكي تتدرب على التخلص من ذلك العيب ... بل انت نفسك حاول أن تفحص نفسك جيداً فى ضوء وصايا الله لتكتشف عيوبك .

* * *

واحذر من تبرير النفس والتماس الأعذار لأخطائك .

فالذى يبرر نفسه ، يبقى دائماً حيث هو ، لا يصلح من ذاته شيئاً ، لأن ذاته جميلة فى عينيه بلا عيب !! أم الذى يحاسب نفسه بدقة ، ولا يعذر نفسه مطلقاً مهما كانت الظروف ، فهذا هو الشخص الذى يمكنه أن يتخلص من عيوبه ، معترفاً أمام ذاته بنقائصه .

* * *

إن كنت تستحى من أن يكشف لك الغير خطأ فيك ، فلاشك أنك لا تستحى من نفسك بنفس القدر!!

فاجلس إلى ذاتك ، وكن صريحاً مع نفسك إلى أبعد الحدود وحاول أن تطرق نقط الضعف التى فيك ، والتى تكشفها لك القراءة الروحية ، أو تدركها من سماعك لبعض العظات التى تشعر أنها تمس حياتك .

* * *

ولو أنك دربت نفسك كل أسبوع ، أو حتى كل شهر على مقاومة نقطة ضعف واحدة ، لأمكنك فى عام واحد أن تتخلص من ١٢ نقطة ضعف . وثق أن الخطايا يرتبط بعضها بالبعض الآخر. بحيث أن تخلصك من خطية معينة ، قد يخلصك من خطايا أخرى عديدة .

* * *

كما أن تدربك على فضيلة معينة ، وبخاصة لو كانت من الفضائل الأمهات ، ستقودك إلى فضائل أخرى ما كنت قد وضعتها فى تدريبك . فالفضائل أيضاً مرتبطة ببعضها البعض ، كحلقات فى سلسلة واحدة .

وسأعطيك مثالاً هنا لارتباط الفضائل .

لنفرض أنك دربت نفسك يوماً على الخلوة ، ستجد نفسك محتاجاً أن تشغل نفسك أثناء الخلوة حتى لا تمل . وهكذا ستلجأ إلى القراءة حيناً ، وإلى الصلاة حيناً آخر، أو إلى الترتيل، أو الحفظ : حفظ مزامير أو قطع من الأجبية أو آيات من الانجيل . وربما يدعوك هذا إلى التأمل فى هذه الآيات ... وهكذا تجد أن تدريباً على الخلوة جرّ وراءه فضائل عديدة ...

أو مثلاً دربت نفسك يوماً على الصمت ، ستجد نفسك محتاجاً بالضرورة إلى أن تشغل ذهنك بشيء نافع ، حتى لا تسرح فيما لا يليق . وهكذا سيقودك الصمت إلى الصلاة أو التأمل ، أو تشغل نفسك بالقراءة .. وهكذا تدريب واحد يجر وراءه تداريب عديدة .

ملاحظات

ثق أنك إن بدأت ، لابد ستبدأ النعمة معك :

الله لا يتركك وحدك فى تداريبك ، بل سيعمل معك . لأنك بالتدريب أظهرت أنك جاد وملتزم بالسلوك فى الحياة مع الله . وهذا الشعور ستتجاوب معه المعونة الإلهية . وإن كان الشيطان يحاول أن يحاربك لتكسر التدريب ، فإن النعمة سوف تسندك لتنجح فيه . المهم أنك لا تتراجع ولا تتراخى ولا تكسل . بل تكون حازماً مع نفسك ...

* * *

وإن دربت نفسك على فضيلة ، فاعلم أن الثبات فى الفضائل أهم بكثير من اقتنائها .

لأنه ما أسهل أن تسير فى فضيلة ما يوماً أو يومين أو ثلاثة أو أسبوعاً ... ولكن المهم أن تستمر، حتى تصبح هذه الفضيلة عادة فيك ، أو تتحول إلى طبع، وهكذا تحتاج التداريب إلى مدى زمنى طويل لكى ترسخ فى أعماق النفس . وكما قال ماراسحق إن كل تدبير لا تثبت فيه زمناً ، يكون بلا ثمر...

ذلك لأن الزمن والاستمرارية هما المحك العملى لمعرفة عمق الفضيلة فيك . والوقت

أيضاً يعطى فرصة لاختبار المعوقات التي تقف ضد التدريب وطريقة النصرة عليها.

* * *

هذا، فإن القفز السريع من تدريب إلى آخر، لا يفيد روحياً.

كثيرون يريدون أن يصلوا إلى كل شيء، في أقل فترة من الوقت. فتكون النتيجة عدم الوصول إلى شيء..!! أو أنهم يضعون أمامهم تداريب عديدة في نفس الوقت، بحيث ينسون بعضها، أو لا يستطيعون التركيز عليها جميعاً. أما أنت فاسلك في تداريبك بحكمة، شيئاً فشيئاً، لكي تصل. وهنا أضع أمامك بعض الملاحظات.

* * *

⋆ ليكن التدريب محدداً وواضحاً.

فلا تقل مثلاً أدرب نفسي على المحبة بينما القديس بولس الرسول يضع لهذه المحبة حوالي ١٤ عنصراً في (١كو١٣). يمكنك الاكتفاء بعنصر واحد تركز عليه. ولا تقل إني أريد أن أدرب نفسي على حياة التواضع، أو الوداعة، أو الإيمان. بينما تكون كل كلمة من هذه غير واضحة في تفاصيلها أمامك. وهكذا لا تفعل شيئاً... إنما قل مثلاً: أريد في حياة الاتضاع أن أدرب نفسي على أمر واحد فقط، وهو أنني لا أمدح ذاتي. فإن أتقنت هذا، تقول: ادرب نفسي على أني أسعى وراء مديح الناس فإن أتقنت هذا، تقول أتدرب على شيء آخر، وهو إن مدحني أحد، أتذكر في الحال خطاياي وتقصيري، وأبكت ذاتي من الداخل.

* * *

⋆ ليكن التدريب في حدود إمكانياتك، بحيث يمكنك تنفيذه عملياً.

البعض يضع لنفسه تدريباً فوق مستوى إرادته، أو لا تساعد عليه ظروفه. أو يقفز في التدريب إلى مستوى درجة عالية لا يستطيع الاستمرار فيها، وقد تصيبه بنكسة فيما بعد ترجعه إلى الوراء خطوات.

فمثلاً، لا تضع لنفسك تدريباً في الصوم فوق احتمال صحتك، ولا تدريباً في الصمت لا يتفق مع ظروف عملك ومقابلاتك، وظروف بيتك، ولا تدريباً في الصلاة أو في الخدمة لا يسمح به وقتك...

★ ويمكن أن تتدرج فى التدريب ، بحيث لا تأخذ فى كل مرة إلا جزءاً واحداً من تفاصيله.

من الصعب مثلاً أن تدرب نفسك على الصمت ، فى حياة المجتمع الذى تضطر فيه بالضرورة إلى الكلام.

ولكنك قد تتدرج فتقول : أدرب نفسى على عدم الإطالة فى الحديث. فما يحتاج إلى كلمة، لا أقول فيه جملة. وما يحتاج إلى جملة، لا ألقى فيه محاضرة. وإن فهم محدثى ما أريد، لا داعى لأن أزيد...

فإن أتقنت هذا ، تقول : لا أبدأ الكلام إلا لضرورة . ثم تدخل فى تدريب آخر، وهو البعد عن الصوت الحاد ، وعن الصوت العالى ، وتقول أدرب نفسى على « الصوت المنخفض الخفيف » (١مل ١٩ : ١٢) . ثم تدخل فى مقاومة أخطاء اللسان واحدة فواحدة. إلى أن تصل إلى حسن الكلام. وحينئذ إن بعدت عن الصمت ، تصل إلى النقطة التالية وهى حسن الكلام، فلا تخطىء. لأن هناك من ينطبق عليه المثل القائل : سكت دهراً ونطق كفراً !!

★ ولتكن تداريبك من صميم حياتك العملية الواقعية .

فما يصلح لغيرك من تداريب ، قد لا يصلح لك أنت. أما تداريبك فليكن مصدرها مقاومة أخطائك الخاصة، وتقصيراتك الروحية ، وما يناسبك فى حياة الفضيلة بحسب قامتك الروحية. وتداريبك يجب أن تتفق مع حياتك وظروفك الداخلية والخارجية.

كراسة التدريبات

★ ولتكن لك كراسة خاصة بالتدريبات .

تكتب فيها التدريب ، وآية أو بضع آيات من الكتاب تشجعك، وتحثك على هذا التدريب بالذات. واحفظ هذه الآيات ورددها باستمرار، لكى تكون حاضرة فى ذهنك كلما حوربت بشيء ضد ما تدرب نفسك عليه. وتذكر أيضاً قصص القديسين الذين كانوا أمثلة عليا فى الفضيلة التى تدرب نفسك عليها.

* * *

★ وإن سقطت فى تدريبك فى وقت ما ، اعرف أسباب السقوط ، وحاول أن تتحاشاها فيما بعد .

وهكذا تأخذ خبرة روحية فى كل ممارساتك ، وتعرف حروب العدو وطريقة الانتصار عليها . حتى أن البعض -بهذه التدريبات- صاروا مرشدين لغيرهم . كالأم التى جربت الحياة ، وتستطيع أن تنصح ابنتها بنصائح عملية تفيدها .

★ وحاول أن تستفيد من فشلك أحياناً فى تداريبك .

ليكن ذلك سبباً فى اتضاعك وشعورك بالضعف ، حتى لا تتكبر نفسك بتوالى النجاح .

وأيضاً ليكن ذلك سبباً يدعو إلى الاشفاق على الضعاف والمخطئين . ولتكن سقطاتك موضوعاً لمطانيات أمام الله تقدم فيها انسحاق قلبك ولتكن مجالاً لصلوات ترفعها إلى الله ليمنحك قوة ونعمة .

جهـــــاد

وبعد ، فإن التداريب فى صورتها الظاهرة ، هى جهاد للوصول إلى نقاوة القلب ، حتى يستحق سكنى الله فيه . ولكنها ليست مجرد جهاد ، وإنما هى طلبة مقدمة إلى الله ليتدخل . وكيف ؟

كثيرون يقدمون لله رغباتهم الروحية فى أسلوب نظرى ، فى مجرد مشاعر القلب أو كلام فى الصلاة . أما التداريب الروحية فهى رغبات تقدم إلى الله بأسلوب عملى ...

هى جهاد عملى صارخ إلى الله لكى يتدخل ويمنح من عنده النصرة لهذا الجهاد ...

والله هو العامل فينا أن نريد وأن نعمل من أجل المسرة (فى ٢ : ١٣) ... المسرة فى أن يتمجد اسمه فينا كلما ننجح فى جهادنا وتداريبنا .

وليكن اسم الرب مباركاً من الآن وإلى الأبد .


الباب السادس
محاسبة
النفس

أهمية محاسبة النفس

يحتاج الإنسان كثيراً إلى جلسة مع النفس :

يجلس إلى نفسه لكى يفحصها و يفتش دواخلها ، و يرقب تصرفاتها ويحاسبها ، حتى يكون فى يقظة مستمرة . وهذه الرقابة الذاتية وملاحظة النفس لازمة لكل إنسان ، مهما علا فى حياته الروحية ، ومهما ارتفع فى منصبه . ولذلك نرى القديس بولس الرسول يكتب إلى تلميذه تيموثاوس الأسقف قائلاً «لاحظ نفسك والتعليم ، وداوم على ذلك . فإنك إن فعلت هذا ، تخلص نفسك والذين يسمعونك أيضاً» (١تى ٤ : ١٦) .

* * *

لذلك فالشيطان يحاول بكل قوة أن يمنع الإنسان الروحى من الجلوس إلى نفسه ، وكذلك يمنع الخاطىء ...

ما أسهل أن يقدم له مشغوليات عديدة جداً ، تستغرق كل وقته ، وتستحوذ على كل مشاعره بأهمية كل هذه المشغوليات . وإن كان إنساناً روحياً محباً لملكوت الله ، يمكن أن يشغله بالخدمة ومتطلباتها ، حتى يجعل الخدمة تشغله ، بحيث لا يهدأ ليفكر فى أخطائه داخل خدمته . مثل ذلك الابن الكبير الذى لم يفرح برجوع أخيه ، ولم تتفق مشيئته مع مشيئة الآب . ومع ذلك قال لأبيه «ها أنا أخدمك سنين هذا عددها ، وقط لم أتجاوز وصيتك . وجدياً لم تعطنى قط لأفرح مع أصدقائى .. !» (لو١٥ : ٢٨ ، ٢٩) . ولاشك أن هذا الابن الخادم طول تلك السنين ، لو كان قد جلس إلى نفسه ، لوجد أن له أخطاء عديدة وغير لائقة ، سواء فى التعامل أو أسلوب التخاطب ، أو فى محبته لأخيه أو احترامه لأبيه...

* * *

لذلك أيها الابن المبارك لا تجعل مشغوليات الخدمة تعطلك عن الجلوس إلى نفسك وفحصها ومناسبتها.

أليس أن الخدمة أحياناً قد تعطلك عن الصلاة وعن القراءة والتأمل؟! ألست أحياناً فى الخدمة ترفع ذاتك وفكرك أكثر مما يليق، وربما ترتئى فوق ما ينبغى (رو١٢: ٣). ألست فى الخدمة أحياناً قد تقع فى الإدانة، وربما فى قساوة القلب، باسم الدفاع عن الحق؟!... وغير ذلك كثير... إجلس إلى نفسك وافحصها، خوفاً من أن تقول «.. لئلا بعدما ما كرزت لآخرين، أصير أنا نفسى مرفوضاً» (١كو٩: ٢٧). أو لئلا تسمع قول الرب لمرثا «أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة. ولكن الحاجة إلى واحد» (لو١٠: ٤١، ٤٢).

* * *

أنت محتاج أن تجلس إلى نفسك لتعرف أخطاءك ...

سواء أخطاء اللسان، أو الفكر، أو الحواس، أو مشاعر القلب، أو أخطاء الجسد... لتعرف أخطاءك ضد الله وضد الناس، وأيضاً ضد نفسك... بل لتدرس طباعك أيضاً الثابتة فيك، والتى لم تتغير... بل لتعرف الخطايا التى تلبس ثياب الحملان، وتتسمى عندك بأسماء فضائل، وقد تفتخر بها!! إجلس يا أخى إلى نفسك، وتذكر قول القديس مقاريوس الكبير:

أحكم يا أخى على نفسك، قبل أن يحكموا عليك ...

كيف تحاسب نفسك؟

لتكن محاسبتك لنفسك بصراحة وجدية.

قد يحاول الشيطان أن يتدخل بإحدى طريقتين:

إما أن يقول لك: لا تبالغ فى حكمك على نفسك، لئلا تقع فى عقدة الذنب Sense of guilt.

أو قد يقول لك: احترس من أن تقسو على نفسك، لئلا تقع فى الكآبة

Depression . وهو ليس مخلصاً فى نصائحه ، لأنه يريد أن يبعدك عن تبكيتك لنفسك. هنا وتذكر قول القديس أنطونيوس الكبير «إن ذكرنا خطايانا، ينساها لنا الله . وإن نسينا خطايانا، يذكرها لنا الله» . وتذكر أيضاً قول داود النبى فى مزمور التوبة « خطيتى أمامى فى كل حين » (مز ٥٠) .

* * *

ذلك لأن الشيطان قد يقول لك : لماذا تتذكر خطاياك ، وهى مغسولة بالدم الكريم ؟!

إنها تظل مغسولة ، طالما كنا فى حياة التوبة، نادمين على ما فعلناه، وفى انسحاق قلب بسبب خطايانا . إن داود النبى ظل يبلل فراشه بدموعه بسبب خطيته ، حتى بعد أن نال المغفرة. وقال له ناثان « الرب نقل عنك خطيئتك . لا تموت» (٢صم ١٢: ١٣). وشاول الطرسوسى بعد أن نال الدعوة الإلهية ، وصار رسولاً ، وتعب أكثر من جميع الرسل « ١كو١٥ : ١٠) . قال فى انسحاق قلب «لأنى أصغر الرسل . أنا الذى لست أهلاً لأن أدعى رسولاً ، لأنى اضطهدت كنيسة الله» ! (١كو١٥ : ٩). ألم تكن هذه الخطية قد غفرت له، وغُسلت بالدم الكريم. ولكنه لا يزال يذكرها و يبكت نفسه عليها . بل أنه يقول فى رسالته الأولى إلى تلميذه تيموثاوس « أنا الذى كنت قبلاً مجدفاً ومضطهداً ومفترياً . ولكننى رُحمت لأنى فعلت بجهل فى عدم إيمان» (١تى١ : ١٣) . وعلى الرغم من أنه فعل ذلك بجهل، وقبل إيمانه ، إلا أنه لا يزال يذكر و يبكت نفسه ...

* * *

وأيضاً فى محاسبتك لنفسك ، احترس من أن تلتمس لنفسك الأعذار والتبريرات ...

قد تحاسب نفسك وتدرك أخطاءك . وإلى هنا تكون النعمة قد عملت فيك . ثم يأتى الشيطان ليفقدك عمل النعمة ، و يبعدك عن الندم والانسحاق ولوم النفس، فيقدم لك الأعذار والتبريرات، لكى تغطى بها على خطيتك ، كما حاول من قبل أبونا آدم وأمنا حواء... احترس من هذه الأعذار التى هى لون زائف من الاشفاق على النفس، بالدفاع عنها ومحاولة تخفيف الذنب فيما إرتكبته ... !

فإن كنت تحب نفسك حقاً ، لا تشفق عليها بهذا الاشفاق الخاطىء الذى يحرمها من مشاعر التوبة والندم والانسحاق . وهذا لا يفيدها بشىء . بل على العكس قد تعتمد على الأعذار وتستمر فى الخطأ . اذكر باستمرار قول الرسول « أنت بلا عذر أيها الإنسان » (رو٢: ١) . الذى يحاول أن يعذر نفسه فى خطاياه، قد يقع فى الضمير الواسع ، الذى يبلع الجمل (مت ٢٣) .

★ ★ ★

وإن عذرت نفسك بأن هناك معطلات خارجية عاقتك عن طريق الفضيلة ، فقل لنفسك : كان ينبغى أن أجاهد لأنتصر، على تلك المعوقات .

هوذا نوح البار كان يعيش فى جيل فاسد جداً حتى أن الله أغرقه بالطوفان . ومع ذلك حفظ نوح نفسه فى الايمان ، ولم يتأثر بالوسط المحيط . و يوسف الصديق كانت الخطية تلح عليه كل يوم ، دون أن يطلبها . وعلى الرغم من ذلك قال عبارته الخالدة « كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء إلى الله ؟! » (تك ٣٩ : ٩) . وفى سبيل رفضه للخطية تحمل ما أحتمله من سجن وعار...

ودانيال والثلاثة فتية كانوا مهددين بموت خطير، هو بالإلقاء إلى جب الأسود ، وهم بالإلقاء فى أتون النار. ولكن ذلك التهديد لم يحولهم مطلقاً عن مخافة الله . وهكذا كان كل الشهداء والمعترفين ، فى كل ما تعرضوا له من تعذيب .

★ ★ ★

إن الضغط الخارجى ، لا يستسلم له سوى الضعف الداخلى .

بكت نفسك بهذه العبارة . وقل لنفسك : ينبغى أن أكون قوياً فى الداخل ، وأنتصر على كل الحروب مهما كانت شديدة . وليبكتك قول بولس الرسول للعبرانيين « لم تقاوموا بعد حتى الدم، مجاهدين ضد الخطية » (عب ١٢ : ٤) . لذلك إن حاسبت نفسك ، فلا تقل فى سقطاتك « لقد كنت ضعيفاً والخطية أقوى منى . بل أذكر انتصار يوسف الصديق ، وبكّت به نفسك . ولا تقل كانت الوصية صعبة، لم استطع تنفيذها !! بل تذكر كيف أن ابراهيم أخذ ابنه الوحيد الذى يحبه ليقدمه محرقة (تك ٢٢) .

★ ★ ★

اذكر قصصاً من الكتاب فى الانتصار على العوائق :

أذكر أصدقاء المفلوج الذين لم يجدوا أى منفذ لإدخال صاحبهم إلى الرب ، فلم ييأسوا ، ونقبوا السقف ودلوه منه (مر٢: ٤) . واذكر الاغراءات التى قدمت لداود لقتل شاول الملك الذى كان يطارده ، وكيف قال داود : حاشا لى أن أمد يدى إلى مسيح الرب .. لأنه مسيح الرب هو (١صم ٢٤ : ٦) ...

* * *

فى محاسبتك لنفسك ، اعتبر الاعذار تدليلاً للنفس .

مثل عذراء النشيد ، التى لم تفتح للرب ، وقد امتلأ رأسه من الطل ، وقصصه من ندى الليل ! وقالت «قد خلعت ثوبى فكيف ألبسه . قد غسلت رجلىَّ فكيف أوسخهما» . ولم يقبل الرب عذرها ، بل تحول عنها وعبر . ثم عصرها الندم فقالت بعد ذلك «طلبته فما وجدته . دعوته فما أجابنى» (نش ٥: ٢- ٦) ...

لا تكن مثل صاحب الوزنة الواحدة ، الذى دفن وزنته فى الأرض ، ووجد لنفسه عذراً فقال لسيده كلاماً شريراً لامه عليه ! (مت ٢٥ : ٢٤- ٢٨) ...

* * *

ما أكثر الذين أخطأوا وقدموا أعذاراً ، كانت كلها غير مقبولة .

مثل شاول الملك لما أصعد محرقة (١صم ١٣ : ١١ ، ١٢) . ومثل يونان النبى لما إغتاظ بالصواب حتى الموت (يون ٤ : ١- ٣) . ومثل ايليا فى خوفه من ايزابل وهربه منها (١مل ١٩ : ١، ١٤) .

ومثل هؤلاء من يكسر الصوم . وإن حاسبه ضميره وبكته ، يعتذر بضعف صحته . ومن يكسر وصية العشور. وإن حاسب نفسه ، يعتذر بظروفه المالية ، وكذلك من لا يفى بالنذر... إن داود لم يجد لنفسه عذراً ، لما «جاء أسد مع دب ، واختطف شاه من قطيعه» ، بل جرى وراءه ، وانقذها من فمه (١صم ١٧ : ٣٤، ٣٥) ... ولو أن داود قد اعتذر عن انقاذ الشاه ، لوجدنا عذره مقبولاً !! ولكنه لم يفعل . كان ضميره أقوى ...

* * *

ما أكثر الذين يخطئون ، فبدلاً من لوم أنفسهم ، يلقون اللوم على الكنيسة لكى يعذروا أنفسهم !!

يقولون : الكنيسة لم تفتقدنى ! أب الاعتراف لم يهتم بى ! لم أجد مرشداً يعرفنى الطريق ! أين الآباء ؟! أين عمل الكهنوت ؟! ولا يقول أحد منهم : الخطأ كان واضحاً ، وضميرى كان يبكتنى ، وأنا لم أطع إرشاد ضميرى وتبكيته لى من الداخل ... !!

إن أنطونيوس العظيم كان وحده فى البرية بلا مرشد . وسار فى الطريق السليم ، ولم يعتذر بعدم وجود إرشاد... وكذلك الأنبا بولا السائح وغيرهما من أعاظم القديسين ...

* * *

فى محاسبتك لنفسك ، من الأفضل لك أن تدين نفسك وتبكتها .

فهذا أنفع لك من تبرير نفسك ، وإلقاء التبعة على غيرك ... ما أجمل جواب أب جبل نتريا ، لما سأله البابا ثاوفيلس عن أحسن الفضائل التى أتقنوها فى حياة الوحدة ، فقال : « صدقنى يا أبى ، لا يوجد أفضل من أن يرجع الإنسان بالملامة على نفسه فى كل شىء » ...

أما العوائق فلا تكون مجالاً للاعتذار، وإنما مجالاً للتدريب على مقاومتها ، والصلاة لكى يعطى الرب نعمة للإنتصار عليها .

* * *

محاسبة النفس تليها إدانة النفس . يليهما علاج النفس .

ووضع كل تلك الضعفات مجالاً للتدريبات الروحية ، وللجهاد الروحى ، والصلاة . وأيضاً لذكرها فى الاعتراف ، وطلب المشورة الصالحة ...

وأيضاً لكى تكون تلك الضعفات سبباً فى اتضاع النفس ، والبعد عن أفكار المجد الباطل كلما تحارب النفس حينما تعمل خيراً . وكذلك تكون تلك الضعفات سبباً فى الإشفاق على المخطئين بدلاً من إدانتهم . كما قال القديس بولس الرسول « أذكروا

المقيدين كأنكم مقيدون معهم ، واذكروا المذلين كأنكم أنتم أيضاً فى الجسد» (عب ١٣ : ٣) .

* * *

حاسب نفسك على السلبيات التى تصدر منك ، وأيضاً على الفضائل التى تنقصك . وكذلك على توقف نموك ، إن كانت روحياتك وصلت إلى وضع معين ، ثم توقف نموها . وهنا تضع أمامك قول القديس بولس الرسول « ولكننى أسعى لعلى أدرك ... أنسى ما هو وراء ، وامتد إلى ما هو قدام . أسعى نحو الغرض » (فى ٣ : ١٢-١٤) . إدرس ما الذى أوقف نموك . أهى أسباب داخلية ، أم عوائق خارجية ؟

متى تكون المحاسبة ؟

بقى سؤال وهو : متى نحاسب أنفسنا ؟

البعض يحاسبون أنفسهم فى مناسبات : فى بداية سنة جديدة مثلاً : السنة الميلادية أو القبطية أو فى بدء سنة من عمرهم . والبعض الأفضل يحاسبون أنفسهم قبل كل اعتراف وتناول . وأفضل من هذين النوعين من يحاسبون أنفسهم فى آخر كل يوم . وأفضل من هؤلاء جميعاً من يحاسب نفسه بعد الفعل مباشرة ، و يبكت نفسه ...

أما الوضع الأمثل والأكمل ، فهو أن تحاسب نفسك على العمل قبل فعله .

فقبل أن تنطق كلمة مثلاً ، تحاسب نفسك : هل يليق بى أن أقول هذه الكلمة ؟ وماذا سيكون وقعها على الآخرين ؟ وهل سيفهمها البعض على غير ما أقصده ؟ فإن وجدت خطأ تتفاداه قبل وقوعه ... وهكذا فى كل تصرف ، وفى كل فكر...

بهذا تسير نحو الكمال . وليكن الرب معك ...


الباب السابع
الاعتراف

الاعتراف واسطة روحية لتوبة الإنسان :

حتى أننا فى عقيدة الكنيسة نسمى سر الاعتراف « سر التوبة ». وهو فعلاً يقود إلى التوبة، إذا مارسه الإنسان بطريقة روحية تليق به. فالاعتراف ليس مجرد كلام يقوله المعترف للأب الكاهن، إنما ينبغى أن يمتزج بمشاعر معينة توصل الخاطىء إلى التوبة الحقيقية فكيف ذلك ؟

عناصر الاعتراف

وما هى عناصر الاعتراف لكى يكون شاملاً :

الاعتراف يشمل أربعة عناصر، يجب أن تتم :

١ ـ الاعتراف على الله نفسه :

كما يقول داود النبى للرب فى المزمور الخمسين، مزمور التوبة « لك وحدك أخطأت، والشر قدامك صنعت » (مز٥٠). وفى هذا الاعتراف نطلب من الله المغفرة، كما نقول فى الصلاة « اغفر لنا خطايانا، كما نغفر نحن أيضاً لمن أخطأ إلينا ». وتطلب من الله أن يرفع غضبه عنك الذى تستحقه بسبب خطاياك، كما نقول فى المزمور « يارب لا تبكتنى بغضبك، ولا تؤدبنى بسخطك. ارحمنى يارب فإنى ضعيف » (مز٦).

* * *

٢ ـ وكما نعترف على الله، نعترف على أب الاعتراف أيضاً :

تعترف عليه كوكيل للسرائر الإلهية (١كو٤: ١). وكرسول من الله إليك « ملا٢: ٧). وتعترف عليه لكى يمنحك من الله المغفرة والحل (يو٢٠: ٢٢، ٢٣) (مت١٨: ١٨). وأيضاً لكى يسمح لك بالتناول، حتى يمكنك أن تتناول باستحقاق

(١كو١١ : ٢٧) . وأيضاً من أجل الإرشاد الروحى، ليشرح لك ما يجب أن تفعله . وتعترف على الأب الكاهن أيضاً لسبب عملى . وهو أن الإنسان كثيراً ما يخجل وهو يذكر خطاياه أمام شخص روحى ، وأمام الكهنوت بالذات . وهذا الخجل يساعده على عدم ارتكاب الخطية فى المستقبل . وهكذا قال الكتاب « إعترفوا بعضكم على بعض بالزلات » (يع ٥ : ١٦) . أى بشر على بشر .

* * *

٣ ـ تعترف على من أخطأت إليه بكل ما أسأت به إليه :

وذلك لكى تزيل من قبله أى غضب ، أو حزن بسبب إساءتك إليه ، حتى يمكنك أن تتناول بقلب صاف من نحو الكل . وهذا ما علم به الرب فى العظة على الجبل ، إذ قال « فإن قدمت قربانك على المذبح ، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك ، فاترك هناك قربانك قدام المذبح ، واذهب أولاً اصطلح مع أخيك » (مت ٥ : ٢٣ ، ٢٤) .

وهكذا لو وجدت فى كل إساءة إلى الغير ستذهب إليه وتصالحه ، وتعتذر إليه معترفاً بخطئك من نحوه ... فبلاشك سيقودك هذا إلى الاحتراس من معاملة الغير، والبعد أن الإساءة ، حتى لا تضطر إلى الإعتذار عنها .

* * *

٤ ـ هناك اعتراف آخر ، قد يكون هو الأول فى الترتيب الزمنى ، وهو أن تعترف بينك وبين نفسك أنك قد أخطأت ...

ذلك أنه إن لم تكن معترفاً فى داخل قلبك وفكرك أنك قد أخطأت ، سوف لا تعترف طبعاً أمام الله بخطأ لا ترى أنك قد وقعت فيه . وأيضاً سوف لا تعترف أمام الكاهن بأنك قد أخطأت . ولن تذهب إلى أخيك وتصالحه ، مادمت غير مقتنع فى داخلك بأنك قد أخطأت إليه ...

إذن الإعتراف بالخطأ أو بالخطية ، يبدأ داخل الإنسان أولاً ، بإحساس داخلى أنه قد أخطأ ، و باقتناع فكرى بواقع الخطأ وتفاصيله ، و بضرورة الإعتراف به للحصول على المغفرة ، وللوصول إلى المصالحة مع الله والناس .

* * *

كثيرون ليس لهم هذا الإحساس الداخلى بالخطأ، لذلك لا يتقدمون نحو التوبة ولا الإعتراف ...

ربما لأن موازينهم الروحية غير سليمة، أو لأنهم يبررون تصرفاتهم باستمرار. الذات عندهم تقف ضد كل اعتراف بالخطأ. يرون ذواتهم باستمرار على حق، فبأى شىء يعترفون؟! بل إن كثيراً من أولئك المخطئين تلبس أخطاؤهم ثوب الفضيلة، و يفتخرون بذلك الخطأ... كما كان الفريسيون والكتبة يرون أنهم على حق فى معاداة السيد المسيح، دفاعاً عن ناموس موسى وتقاليد آبائهم!! وهكذا قالوا له فى جرأة وفى الإعتزازبالإثم «ألسنا نقول حسناً أنك سامرى و بك شيطان» (يو٨: ٤٨)!! إنهم يهينون المسيح هكذا و يشتمونه، و يرون أنهم يقولون حسناً!!

مشاعر المعترف

المعترف إذن لابد أن يشعر أنه أخطأ. ولابد أن يندم على خطيئته و ينسحق قلبه بسببها.

داود النبى كان من فرط ندمه، كان يبكى بمرارة على خطيته، و بدموعه يبل فراشه» (مز٦). وكان يرى أن خطيئته تحتاج إلى غسيل وتطهير، فيقول للرب «إغسلنى كثيراً من إثمى، ومن خطيئتى طهرنى» «إنضح علىَّ بزوفاك فأطهر...» (مز٥٠).

كثيرون يأتون إلى الاعتراف بغير ندم، و بغير شعور بالخجل والخزى والعار من خطاياهم. ولذلك لا يستفيدون من اعترافهم. و يصبح اعترافهم مجرد كلام بغير روح!! أما أنت فبقدر ندمك تكون توبتك، وتكون استفادتك من الاعتراف.

* * *

ومع الندم يوجد عزم أكيد على تغيير حالتك.

إصرار على ترك الماضى الخاطىء، وغلق كل السبل الموصلة إلى الخطية. لأن الاعتراف ليس معناه التخلص من حساب قديم، لفتح حساب جديد إنما هو قطع كل

صلة بالخطية، معترفاً بأنها طريق خاطىء يمنع الحياة مع الله وسكنى روحه فى القلب.

* * *

كذلك ينبغى أن يوقن المعترف أنه قد أخطأ ضد الله نفسه ...

فالخطية هى عصيان لله وكسر لوصاياه. هى تمرد على الله وثورة عليه، وتفضيل محبة العالم والمادة والجسد على محبة الله. وكما قال القديس يعقوب الرسول: «أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله؟! فمن أراد أن يكون محباً للعالم، فقد صار عدواً لله» (يع ٤: ٤). وقال القديس يوحنا الرسول «إن أحب أحد العالم، فليست فيه محبة الآب» (١يو٢: ١٥). إذن الخطية ضد محبة الله. وفى نفس الوقت هى رفض للشركة مع روحه القدوس، لأنه «أية شركة للنور مع الظلمة؟!» (٢كو٦: ١٤)... ولأن الخطية ضد الله، إذن فهى غير محدودة لأن الله غير محدود...

* * *

لهذا نرى داود النبى يقول للرب «لك وحدك أخطأت، والشر قدامك صنعت» (مز ٥٠). ولم يقل أخطأت إلى أوريا وبتشبع زوجته... كذلك لما عرضت الخطية على يوسف الصديق، رفضها قائلاً «كيف أصنع هذا الشر العظيم، وأخطىء إلى الله؟!» (تك ٣٩: ٩)... ضع هذا إذن فى ذهنك، وأنت تعرف أنك أخطأت إلى الله.

* * *

كذلك ليس الاعتراف مجرد علاقة بينك وبين أب الاعتراف. إنما قبل كل شىء هو علاقة مع الله...

إنك تعترف إلى الله فى سمع الكاهن، كما قال يشوع بن نون لعخان «يا ابنى، اعط مجداً للرب... إعترف له وأخبرنى الآن ماذا فعلت...» (يش ٧: ١٩)... كذلك فى التحليل، أنت تأخذ حلاً من الله من فم الكاهن. بهذا تشعر بوجود الله أثناء الاعتراف، وتستفيد روحياً من اعترافك. كثيرون ينسون الوجود فى حضرة الله أثناء الاعتراف. فتضيع هيبة الاعتراف، ولا يستفيدون الفائدة المرجوة.

* * *

الاعتراف ودم المسيح

كذلك هناك نقطة هامة فى الاستفادة من الاعتراف ، وهى معرفة معنى المغفرة وكيف تتم .

كان الشخص الذى يخطىء ، يأتى بذبيحة عن إثمه أو خطيئته ، و يضع يده على رأس الذبيحة ، و يقر بخطاياه (لا ٥ : ٥) . وكان يدرك تماماً أن هذه الذبيحة تموت بدلاً منه . هو يستحق الموت ، ولكن ذلك الحمل المذبوح يموت عنه . وكان وضع يده يدل على أمرين : أنه قَبِل أن تنوب هذه الذبيحة عنه . وأنه بوضع يده عليها ، تنقل الخطية منه إليها ، هذه الخطية التى يقر بها أمام الكاهن ...

فكيف نطبق هذا الأمر فى سر الاعتراف ؟ معناه أن الخطية تنتقل منك إلى حساب المسيح ليمحوها بدمه ...

* * *

إذن اعترافك بخطيتك ، معناه أنك تطلب أن يحملها المسيح بدلاً منك . تنتقل منك إليه ، فيحملها عنك ...

هنا تحس جيداً وتدرك ما معنى المغفرة . ليس معناها أن الله قد تنازل عن حقه . فالعدل الإلهى لابد أن يستوفى . وكيف ذلك ؟ بأن يحمل المسيح خطيئتك ويمحوها بدمه . وهذا ما قيل بسفر اشعياء النبى « كلنا كغنم ضللنا ، والرب قد وضع عليه إثم جميعنا » « وهو مجروح لأجل معاصينا .. مسحوق لأجل آثامنا » (أش ٥٣ : ٦ ، ٥) ... بهذا الفهم السليم ، تكون مشاعرك نحو الاعتراف وخطورته ، والمغفرة وكيفيتها ...

* * *

هنا لا ينفصل الاعتراف عن المسيح ودمه ...

وكأنك تقول للأب الكاهن : جئتك يا أبى ، لكى تأخذ دنسى كله ، وتنقله إلى رأس المسيح ، ليحمله عنى : كل دنس الفكر والقلب واللسان ، ودنس الجسد أيضاً ... كل خطاياى بلا استثناء . هى إذن عملية نقل ، و بدون هذا النقل لا تتم مغفرة .

وهكذا لما اعترف داود أنه أخطأ ، قال له ناثان « والرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك ، لا تموت » (٢صم ١٢ : ١٣) . نقلها إلى أين ؟ إلى حساب المسيح . ولماذا لا تموت ؟ لأنه سيموت عنك .

هذه هى الطريقة الوحيدة للمغفرة . لأنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة (عب ٩ : ٢٢) . الله يسمع خطاياك التى تعترف بها له فى سمع الكاهن . و ينقلها إلى حساب ابنه الوحيد الذى أرسله كفارة لخطايانا » (١يو٤ : ١٠)... « ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية » (١يو١ : ٧) .

* * *

إذن ضع دم المسيح أمامك فى كل اعتراف . وإن خجلت إخجل منه هو ...

إخجل من هذا الكلى الطهر الذى يحمل نجاستك . هذا القدوس الذى بلا خطية وحده . الذى لم يعرف خطية ، ولكنه جُعل خطية لأجلنا ، لنصير نحن بر الله فيه (٢كو٥ : ٢١) . هذا الخجل الحقيقى بفهمه اللاهوتى ، هو الذى يجعلك تخجل من ارتكاب الخطية مرة أخرى... وليس مجرد خجلك من الآب الكاهن وهو يسمع خطاياك . بل خجلك من الإبن القدوس وهو حامل لخطاياك .

* * *

على أن حمل المسيح لخطاياك ، يلزمه منك أمران : الإيمان والتوبة ...

الإيمان به فى فدائه العجيب الذى قدمه لخلاصك . وعن هذا قال الكتاب « هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يو٣ : ١٦)... كل من يؤمن به ...

أما عن التوبة اللازمة لك لاستحقاق المغفرة ، فقد قال عنها الرب « إن لم تتوبوا ، فجميعكم كذلك تهلكون » (لو١٣ : ٣، ٥) .

أتظن الاعتراف بدون إيمان وتوبة ، يمكنه أن يخلصك ؟ كلا . أمزج اعترافك إذن بالندم والتوبة والعزيمة الصادقة على تغيير مسلكك . وبهذا تستحق دم المسيح الذى يطهرك من كل خطية . و بهذا تخرج من اعترافك مغسولاً بالدم الكريم ...

* * *

نصائح للمعترفين

١ ـ ينبغى أن تراعى وقت أب الاعتراف ومسئولياته وصحته ، وأن تراعى أيضاً باقى المعترفين الذين ينتظرون دورهم بعدك . فلا تطيل أزيد مما يجب ، ولا تضيع الوقت فى مقدمات وشروحات لا لزوم لها . أو فى محاولة أن تتذكر ما تريد أن تقوله بل عليك بتحضير اعترافك من قبل ، مع التركيز أثناء اعترافك .

* * *

٢ ـ إعرف أنك على قدر ما تفتح قلبك وتكون صريحاً فى اعترافك ، على قدر ما تستفيد روحياً .

* * *

٣ ـ عليك أن تحتفظ بسرية ارشادات أب اعترافك ، كما يحتفظ هو بسرية ما تقوله من خطايا . فقد تقول فى اعترافك شكوى أو عثرة من أحد الأشخاص ، فينصحك أب الاعتراف أن تتجنب ذلك الشخص أو تبتعد عنه . فلا تخرج وتقول للبعض « أمرنى أب اعترافى أن أبتعد عن فلان أو فلانه » . فربما تسبب بذلك إحراجاً لأ بيك الروحى .

* * *

٤ ـ لا تطلب من أب اعترافك أن يكون مجرد جهاز تنفيذ لرغباتك كأن تأتيه بقرارات تطلب منه الموافقة عليها ، وإلا يضيع الوقت فى جدل و بكاء وعذاب لأنه لم يوافقك على ما تريد . الوضع السليم أنك تستشيره وتطلب نصيحته ، لا أن تقدم له قرارات مسبقة . وفى نفس الوقت لا تحاول أن تخفى عنه ما ترى أنه لا يوافق عليه .

* * *

٥ ـ لا تسأل أب اعترافك عن أمور ليس من صالحك أن تعرفها ، كأن تسأل فى سياسة الكنيسة وأخبارها ، ولو عن طريق أن تقول له « أتعبتنى أفكار بخصوص موضوع كذا من أخبار الكنيسة » .

٦ - ينبغى أن تكون لك ثقة بأب اعترافك ، ولا تضطره فى كل نصيحة أن يقدم لك الكثير من الإثباتات ومن البراهين لكى تقتنع . وهكذا قد يبذل جهداً يمكن توفيره .

* * *

٧ - إذا أتاك فكر شك فى أب اعترافك ، فلا تذكر ذلك بأسلوب جارح ، وإنما لتكن لك الصراحة المؤدبة .

٨ - لا تعامل أب اعترافك معاملة الند بالند ، ولا تعاتبه بشدة . وإنما تذكر باستمرار أنك فى اعترافك عليه ، إنما تقف أمام وكيل الله .

* * *

٩ - لا تتملكك الغيرة من معاملة أب الاعتراف لغيرك ممن لهم حالة خاصة . ولا تحاول أن تضغط عليه لمعرفة تلك الحالة الخاصة ، لأنك بذلك تدخل فى سرية اعترافاتهم .

* * *

١٠ - لا تكن كثير التردد على أب الاعتراف ، لتسأله حتى عن التافهات ، أو فى كل صغيرة وكبيرة ، لئلا يتساءل البعض لماذا يقابلك أكثر منهم وتسبب له حرجاً .

١١ - عليك بالطاعة . ولتكن الطاعة الحكيمة .

* * *

١٢ - إذا وبخك أب الاعتراف على خطأ ، فلا تتضايق من توبيخه ، إنه لفائدتك . ولا تحاول أن تبرر نفسك فيما تقدمه من اعترافات .

١٣ - إن طلبت من أب اعترافك طلباً وصمت ، فلا تقل أن صمته علامة على الموافقة ، ربما صمت لأن ما تطلبه فيه شيء محرج ، أو يكشف عن بعض أسرار الناس أو أن الاجابة لا تفيدك بل قد تضرك . أو أنه ربما لأنه أجاب على ذلك من قبل . أو أنه صمت لأنه مرهق . أو لأن السؤال خطأ .

* * *

١٤ ـ فى اعترافك لا تذكر أنصاف الحقائق ، بل الحقيقة كاملة .

١٥ ـ لا تحول الاعتراف إلى شكوى من غيرك . ولا يكن مجالاً للتحدث عن اخطاء الآخرين . تكلم عن أخطائك وحدك .




الباب الثامن
التناول

أهمية التناول وفائدته

إن التناول من السرائر الإلهية من أهم الوسائط الروحية وأعمقها أثراً فى الإنسان. سواء من جهة مفعول هذا السر بذاته كما شرح الرب، أو فائدته الروحية الواضحة فى الاستعداد له، أو من جهة نتائجه الواضحة وتأثيره الروحى فى المتناول.

* * *

١- أول أهمية له هى الثبات فى الرب

وذلك حسب قول الرب فى إنجيل يوحنا «من يأكل جسدى و يشرب دمى، يثبت فىَّ وأنا فيه» (يو٦: ٥٦). وهنا لا يتحدث عن الحياة مع الله فقط، وإنما بالأكثر الثبات فيه.

* * *

٢- كذلك التناول هو الخبز الروحى

قال عنه الرب فى (يو٦) إنه الخبز الحى النازل من السماء، هو خبز الحياة «إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد» وهو «الواهب الحياة للعالم» (يو٦: ٣٣، ٤٨، ٥٠، ٥١). ولذلك فإن الذين يترجمون الخبز فى الصلاة الربية بعبارة «خبزنا الذى للغد» يركزون على الطعام الروحى اللازم لأبدية الإنسان، و بخاصة هذا الخبز السماوى الذى للغد أى للحياة الأبدية. كما قال الرب «من يأكل جسدى و يشرب دمى، فله حياة أبدية، وأن أقيمه فى اليوم الأخير» (يو٦: ٥٤)... «من يأكل هذا الخبز، فإنه يحيا إلى الأبد» (يو٦: ٥٨).

إنه خبز الحياة، لأنه سبب حياة روحية للإنسان.

* * *

٣- هذا التناول هو عملية تطعيم كما فى الأشجار

إذ يمكن أن تطعم شجرة ما بشجرة أفضل، فتبقى هذه الشجرة الأفضل، بدلاً من طبيعة الشجرة الأولى. وهكذا فإن طبيعتنا البشرية- فى سر الأفخارستيا- تحدث له عملية تطعيم بجسد الرب ودمه...

وقد أعطانا الرب مثالاً لعملية التطعيم ، بكنيسة العهد الجديد (الزيتونة البرية) التى أمكن تطعيمها فى الزيتونة الأصلية التى للعهد القديم ، فأصبحت « شريكاً فى أصل الزيتونة ودسمها » (رو ١١ : ١٧) ...

وبالتناول ، كأغصان فى الكرمة (يو ١٥ : ٥) ، حينما نثبت فيها بالتناول ، تسرى فينا عصارة الكرمة ، فنتغذى بها ونحيا « ونأتى بثمر كثير » ...

* * *

٤ - نذكر فى التناول أيضاً بركاته التى نسمعها فى القداس الإلهى فى الاعتراف الأخير ، إذ يقول الكاهن :

« يُعطى عنا خلاصاً ، وغفراناً للخطايا ، وحياة أبدية لمن يتناول منه » .

مَنْ مِنا يستطيع أن يستغنى عن هذه البركة الثلاثية : الخلاص والغفران والحياة الأبدية ؟! إن المغفرة التى نستحقها بالتوبة والإعتراف ، ننالها فى التناول . لأنه « بدون سفك دم لا تحدث مغفرة » (عب ٩ : ٢٢) . وسر الافخارستيا هو استمرارية لذبيحة المسيح الذى نتناول دمه الكريم . وكما قال القديس يوحنا الرسول عن هذا الدم إنه « يطهرنا من كل خطية » (١ يو ١ : ٧) ...

وإذ يطهرنا من الخطية ، يعدنا للحياة الأبدية .

* * *

٥ - التناول أيضاً هو عهد مع الله

كما نذكر قول الرب الذى نردده فى القداس الإلهى « لأنه فى كل مرة تأكلون من هذا الخبز ، وتشربون من هذه الكأس ، تبشرون بموتى ، وتعترفون بقيامتى ، وتذكروننى إلى أن أجىء » (١ كو ١١ : ٢٦) . فهل نحن فى كل تناول ، ندخل فى عهد مع الرب أن نذكره إلى أن يجىء ؟!

من أجل هذا العهد بين الرب وبيننا ، فإن يوم الخميس الكبير الذى سلّم فيه الرب هذا السر لتلاميذه القديسين ، نسميه (خميس العهد) ... ليتك تذكر باستمرار فى كل مرة تتناول فيها ، أنك تدخل فى عهد مع الرب ...

الاستعداد للتناول

أخطر عبارة فى ذلك ، قالها القديس الأنبا رويس :

قال : يليق بالذى يتناول جسد الرب ودمه فى داخله ، أن يكون من الداخل فى نقاوة أحشاء العذراء التى كان فى داخلها جسد الرب » . ما أخطر هذه العبارة ؟! من ذا الذى يستطيعها ؟! لذلك سأكلمكم عن السهل المستطاع . يلزمنا إذن الاستعداد الروحى للتناول :

* * *

وبمقدار استعدادنا للتناول ، تكون استفادتنا منه ...

كثيرون يتناولون ... آلاف ، بل مئات الآلاف ... ولكن ليس الجميع يستفيدون نفس الفائدة الروحية !! ولنضرب مثالاً بالرسل الأحد عشر الذين تناولوا فى يوم خميس العهد ومن يد الرب نفسه :

واحد منهم فقط ، تبع المسيح حتى الصليب ، هو القديس يوحنا الحبيب ، واستحق أن يكلمه الرب ، وأن يعهد إليه بالسيدة العذراء قائلاً « هذه أمك » (يو١٩ : ٢٧) . فأخذها إلى بيته ، وصارت بركة له ...

وتلميذ من الذين تناولوا ، تبع المسيح حتى بيت رئيس الكهنة . وكان قد تحمس أيضاً وقطع أذن عبد رئيس الكهنة ، دفاعاً عن المسيح (يو١٨ : ٢٥ - ٢٧) . ولكنه عاد فأنكر الرب ثلاث مرات !!

وباقى التلاميذ التسعة هربوا وقت القبض على معلمهم وسيدهم !! والكل كانوا قد تناولوا معاً ...

* * *

إن التناول يذكرنا بمثل الزارع (مت ١٣) .

الزارع هو نفس الزارع ، والبذار هى نفس البذار . ولكن حسب طبيعة الأرض اختلفت النتائج : فالبعض سقط على الطريق فأكلته الطيور . والبعض سقط على الأرض المحجرة ، وإذ لم يكن له عمق أرض جف . والبعض سقط على أرض فيها

شوك ، فطلع الشوك وخنقه... وحتى الذى سقط على الأرض ، لم يعط ثمراً بمستوى واحد . بل أعطى بعض مائة ، وآخر ستين ، وآخر ثلاثين (مت ١٣ : ٣- ٩)...

هكذا التناول أيضاً ، حسب حالة قلب الإنسان ، وحسب استعداده الروحى ، هكذا تكون استفادته الروحية .

* * *

فهو من الوسائط الروحية ، ولكن تختلف فائدته من شخص لآخر، حسب استعداده له ...

كثيرون يتناولون كثيراً ، بل قد يتناولون كل يوم وفى كل قداس . وربما لا يستفيدون !! وربما من كثرة التناول بلا استعداد، قد يتحول الأمر إلى مجرد عادة ، وتسقط هيبة الأسرار من قلوبهم ! وغير هؤلاء قليلون يستطيعون الاحتفاظ بهيبة السر ودوام الاستعداد له... لذلك اختبر نفسك وانظر: هل المداومة على التناول فى مواعيد متقاربة جداً ، تساعدك على دوام الحرص أم لا ؟ الأمر يختلف من شخص لآخر...

هنا ونسأل ما هو الاستعداد للتناول ؟

* * *

أولاً : الاستعداد بالاتضاع وبانسحاق القلب

من أجمل قطع القداس الإلهى فى هذا الانسحاق ، صلاة سرية يتلوها الأب الكاهن ، قبل القداس وهو يفرش المذبح ، تسمى (صلاة الاستعداد) يقول فيها : أيها الرب العارف قلب كل أحد، القدوس المستريح فى قديسيه ، الذى بلا خطية وحده ، القادر على مغفرة الخطايا ... أنت يارب تعرف أنى غير مستحق ولا مستعد ولا مستوجب لهذه الخدمة المقدسة التى لك ، وليس لى وجه أن أقترب وافتح فاى أمام مجدك الأقدس . ولكن من أجل كثرة رأفاتك ، اغفر لى أنا الخاطىء ، وامنحنى أن أجد نعمة ورأفة فى هذه الساعة ...» .

فإن كان الأب الكاهن فى القداس الإلهى بهذا الانسحاق ، فكم بالأكثر يكون باقى الشعب ؟!

* * *

٢- ويلزم للتناول : التوبة والنقاوة الداخلية

وهنا نرى الأب الكاهن نفسه يقوم بعدة أمور :

★ يلبس هو والشمامسة الملابس البيضاء (التونيات) الخاصة بالخدمة ، والتى ترمز إلى النقاوة الداخلية . مثلما يلبس المعتمد بعد عماده ملابس بيضاء ترمز إلى الحياة الطاهرة النقية التى نالها بالمعمودية ، إذ لبس بر المسيح (غل ٣: ٢٧) . وكما يقول السيد الرب «من يغلب ، فذلك سيلبس ثياباً بيضاً ..» (رؤ ٣: ٥) اشارة إلى الحياة المقدسة فى الملكوت الأبدى... وكما قيل عن ملائكة القيامة إنهم كانوا «بثياب بيض» (يو ٢٠: ١٢) (مر ١٦: ٥) (مت ٢٨: ٣) ... وذلك يرمز إلى قداسة الملائكة وطهارتهم . وهكذا يكون خدّام المذبح الذين يتقدمون للتناول ... و يكون فى هذه الملابس البيضاء قدوة للشعب ومثالاً ...

* * *

★ وكما يلبس الكاهن ، يغسل أيضاً يديه قبل القداس ، و يقول «انضح علىَّ بزوفاك فاطهر ، واغسلنى فابيض أكثر من الثلج» .

و يقول أيضاً «اغسل يدى بالنقاوة ، وأطوف بمذبحك يارب ...» .

إنه درس يقدمه الأب الكاهن للشعب قبل التناول أن تغتسل نفوسهم بالتوبة ، وتصير أبيض من الثلج ...

★ ★ ★

★ إن التوبة لازمة جداً للتناول . ولعلنا نلاحظ أن السيد المسيح له المجد ، قبل أن يناول تلاميذه فى يوم الخميس الكبير غسل أرجلهم أولاً وقال لهم «أنتم الآن طاهرون، ولكن ليس كلكم» (يو ٣: ١٠) . وكان يعنى يهوذا مُسَلّمه ، ولذلك لم يناوله من الجسد والدم .

★ ولعل من أخطر العبارات التى تقال فى هذا المجال فى القداس الإلهى ، قبل التناول :

« القدسات للقديسين » أى السرائر المقدسة هى للقديسين .

لذلك يسمى القداس الذى يتناول فيه المؤمنون (قداس القديسين) ، لتمييزه عن الجزء السابق له الذى كان يسمى (قداس الموعوظين) . وفيه يستمع أولئك للقراءات

والعظة ، و ينصرفون قبل بداية قداس القديسين الذى يتناول فيه هؤلاء القديسون ...

إذن يحتاج الإنسان إلى قداسة لكى يستحق التناول من الأسرار المقدسة . وهذا يذكرنى بعبارة جميلة قالها صموئيل النبى لأسرة يسى البيتلحمى حينما أراد أن يقدم ذبيحة ... قال لهم :

« تقدسوا وتعالوا معى إلى الذبيحة » (١صم ١٦ : ٥) .

* * *

وهكذا « قدّس يسى و بنيه ، ودعاهم إلى الذبيحة » ... ليتنا نحفظ تلك العبارات ونرددها فى يوم التناول ، العبارات الخاصة بقدسية المتناولين من تلك السرائر المقدسة ... وإن لم نستطع أن نصل إلى تلك القداسة فى إيجابياتها الروحية ، فعلى الأقل نتقدم إلى التناول بالتوبة والاعتراف ، و بعزم أكيد على ترك الخطية ، والبعد عن كل الأسباب التى توصلنا إليها إلى توصلها إلينا . وإن اعترفنا بخطايانا ، لا يكون اعترافنا مجرد كلام ، بل يكون ندماً حقيقياً ، وتوبة عملية ، حتى تكون أنفسنا وأجسادنا مستحقة لحلول تلك الأسرار المقدسة فيها ، فنقبلها بقلوب طاهرة ، ونفوس مستحقة ، وأرواح متصلة بالله ... وماذا أيضاً ؟

* * *

٣ ـ يلزم التناول أيضاً استعداداً للجسد . وكيف ؟

نستعد للتناول بطهارة الجسد وصومه ونظافته . ولنتذكر كمثال : استعداد الشعب لتقبل كلام الله فى العهد القديم ، أعنى استلام الوصايا العشر ، إذ « قال الرب لموسى : اذهب إلى الشعب ، وقدسهم اليوم وغداً . وليغسلوا ثيابهم ، و يكونوا مستعدين لليوم الثالث » (خر١٩ : ١٠ ، ١١) ... « فانحدر موسى من الجبل إلى الشعب وقدّس الشعب ، وغسلوا ثيابهم . وقال للشعب : كونوا مستعدين لليوم الثالث . لا تقربوا إمرأة » (خر١٩ : ١٤ ، ١٥) .

* * *

لذلك فالاتصال الجنسى ، والاحتلام ، ونزيف الدم ، وما أشبه ، أمور تمنع التناول .

ينبغى أن يكون المتقدم للتناول طاهراً ، جسداً وروحاً . وهكذا أيضاً يحسن الاستحمام فى اليوم السابق للتناول ، أو على الأقل الاغتسال لمن يتناول باستمرار .

مجرد هذا الأمر - إلى جوار نظافة الجسد الذى يستقبل التناول - يعطى الإنسان إحساساً بأنه يستعد يلزمه لون من اللياقة.

كذلك نستعد جسدياً بالصوم.

وحسب نظام كنيستنا نصوم منقطعين عن الطعام والشراب فترة لا تقل عن تسع نكون قد دخلنا فى يوم جديد (يوم التناول) الذى يجب أن نبدأه صائمين.

والصوم ليس مجرد عمل جسدى، فهو من ناحية أخرى عمل روحى. وهو استعداد لكل نعمة نتلقاها فى كل سر من أسرار الكنيسة، إلا فى الاستثناء المانع كالمرض الشديد، وحالياً يستثنى سر الزواج أيضاً حسب قول السيد الرب «هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا مادام العريس معهم؟! مادام العريس معهم لا يستطيعوا أن يصوموا» (مر ٢: ١٩). ولكن حينما كان سر الزواج يجرى بعد رفع بخور باكر، كان يقترن بالصوم أيضاً... كم بالأولى التناول.

* * *

٤ - من شروط الاستعداد للتناول أيضاً: المصالحة.

وهكذا قبل بدء قداس القديسين، قبل أن يُرفع الإبروسفارين، يصلى الكاهن صلاة الصلح، التى يقول فيها «اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نقبل بعضا بعضاً بقبلة مقدسة، لكى ننال بغير وقوع فى دينونة من موهبتك غير المائتة السمائية»... لاحظ هنا عبارة «لكى ننال بغير وقوع فى دينونة»... إذن الذى يتناول بغير مصالحة يقع فى دينونة.

ثم ينادى الشماس قائلاً «قبلوا بعضكم بعضاً ..» وهذه القبلة المقدسة تعنى كمال الحب بين الناس. وعبارة «مقدسة» تعنى أنها طاهرة وبغير رياء، وليس مثل قبلة يهوذا، التى تذكاراً لها يمتنع التقبيل فى أسبوع الآلام.

* * *

ينبغى قبل التناول أن نكون فى صلح مع الله والناس.

مع الله بالتوبة، حسب قول الرسول «... تصالحوا مع الله» (٢كو٥: ٢٠)... ومع الناس حسب قول الرب «فإن قدمت قربانك على المذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك قربانك قدام المذبح، واذهب أولاً تصالح مع أخيك...»

(مت ٥: ٢٣ ، ٢٤) . وعبارة «شيئاً عليك» تعنى أنك فى موقف المذنب . أما الذى يبغضك بغير سبب منك ، كما أبغض شاول داود ، وكما قال داود «أكثر من شعر رأسى ، الذين يبغضوننى بلا سبب» (مز٦٩: ٤)... فذلك طبعاً لست مطالباً بأن تترك قربانك لمصالحته... السيد المسيح نفسه كان يبغضونه بلا سبب (يو١٥: ١٨، ٢٤، ٢٥)... أنت أيضاً لست مطالباً بالذهاب لمصالحة من يضطهدونك ومن يحسدونك و يعادونك . ولكن هناك قاعدة :

إن كنت أنت المسىء ، اذهب وصالح مَنْ أسأت إليه . وإن كنت المُساء إليه ، فاحفظ قلبك من البغضة .

كذلك لست مطالباً بأن تصالح من يعثرك روحياً أو أخلاقياً أو فكرياً ، الذى ينطبق عليه قول الكتاب «المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة» (١كو١٥: ٣٣) . والكتاب يطالبنا أن نبعد عن العثرات ، لا أن نذهب لنصالح أصحابها ، ونرجع معهم علاقات تسبب الخطية...

* * *

كذلك لست مطالباً بأن تذهب لتصالح أصحاب البدع والهرطقات . أولئك الذين قال عنهم الرسول «إن كان أحد يأتيكم ولا يجىء بهذا التعليم ، فلا تقبلوه فى البيت ، ولا تقولوا له سلام . لأن من يسلم عليه يشترك فى أعماله الشريرة» (٢يو١٠ ، ١١)... ولا تسلم على من قال عنه الكتاب «اعزلوا الخبيث من بينكم» (١كو٥: ١٣)...

وعموماً ، لا يكون صلحك مع الناس على حساب صلحك مع الله ...

تحدثنا عن الاستعداد للتناول ، بقى أن نقول :

* * *

يشرح الكتاب عواقب من يتناول بغير استحقاق :

فيقول الرسول عن التناول إذن أى من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق ، يكون مجرماً فى جسد الرب ودمه . ولكن ليمتحن الإنسان نفسه... لأن الذى يأكل و يشرب بدون استحقاق ، يأكل و يشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد

الرب . من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون . لأننا لو حكمنا على أنفسنا، لما حُكم علينا» (١كو١١ : ٢٧- ٣١)... عبارات خطيرة ومحذرة... لذلك اعتدت أن أقول قبل التناول ، وأنصح من يتناولون أن يقولوا :

ليس يارب من أجل استحقاقى أتناول ، إنما من أجل احتياجى . ليس لاستحقاقى بل لعلاجى.

ليست لى القداسة التى أتناول بها ، إنما أنا أتناول ليساعدنى التناول على حياة القداسة ، إذ أنال به قوة روحية ، ودفعة إلى قدام .

★ ★ ★

فالذى يتناول يشعر بهيبة هذا السرّ ويخجل من ارتكاب الخطية بسبب قداسة التناول . فإن كان يتناول كل أسبوع مثلاً ، يظل الأيام التالية لتناوله مبتعداً عن الخطية بسبب قداسة السرّ.. وكذلك فى الأيام السابقة للتناول التالى يكون محترساً مستعداً للتناول فى الأسبوع المقبل... فيتعود الحرص .

★ ★ ★

من أهمية التناول ، فإن الكنيسة تشعرك بأن يوم التناول يوم غير عادى ، بوسائل كثيرة :

الاستعداد له بالصوم ، وطهارة الجسد ، وبالاعتراف والتوبة ، وبالمصالحة مع الناس ، والدخول إليه بانسحاق ، والصلاة قبل التناول وبعده ، والكنيسة تعدّ الشخص للتناول بأكثر من تحليل للمغفرة : تحليل فى رفع بخور عشية ، وتحليل فى رفع بخور باكر ، وتحليل الخدام ، وتحليل سرى فى نهاية القداس . كما تعد ذهنه روحياً بالقراءات الكتابية الكثيرة ، وبالطقوس الروحية وكل ما فى القداس من تأثير .

وبعد التناول تجعله يحترس من أن يخرج ، أو أن يبصق ، احتراماً لتناوله .

★ ★ ★

أتذكر أننى ذات يوم فى بدء رهبنتى ، كتبت فى مذكرتى فى يوم تناولى :

« هذا الفم الذى تقدس بتناول جسد الرب ودمه : كلمة زائدة لا تخرج منه . ولقمة زائدة لا تدخل فيه » .


الباب التاسع
الصّوم

فوائد الصوم وأهميته :

الصوم من الوسائط الروحية الأساسية . فلماذا ؟

لأنه أولاً يفيد فى ضبط النفس .

من حيث أن الصائم يمنع نفسه عن تناول الطعام والشراب بصفة عامة خلال فترة الإنقطاع . ويمنع نفسه عن كل ما يتعلق بالاسم الحيوانى . وهكذا يدخل فى حياته عنصر المنع . يستطيع أن يقول لنفسه كلمة (لا) ، و ينفذ ذلك . وكما يمنع جسده عن الطعام والشراب ، يتدرج حتى يمنع نفسه عن كثير من الأخطاء .

* * *

عنصر المنع هذا ، وضعه الله منذ البدء .

وذلك حينما أمر أبوينا الأولين آدم وحواء أن يمتنعا عن الأكل من شجرة معرفة الخير والشر . فوضع بذلك مبدأ ضبط النفس من أول تاريخ البشرية . لكى ندرك تماماً أن الحرية ليس معناها التسيب . فعلى الرغم من أن الله كان كريماً جداً مع آدم وحواء ، وصرح لهما أن يأكلا «من كل شجر الجنة » ، إلا أنه وضع ضابطاً هو المنع من شجرة واحدة (تك ٢ : ١٦ ، ١٧) (تك ٣ : ٣) .

* * *

لعلنا هنا ندرك تماماً خطورة العبارة التى قالها سليمان الحكيم فى التعبير عن تسيبه فى المتعة ، إذ قال « ومهما اشتهته عيناى لم أمنعه عنهما » (جا ٢ : ١٠) . فلما وصل إلى هذا الوضع ، تطور حتى أخطأ وفقد حكمته . « ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه » (١مل ١١ : ٤) . وعصفت به الشهوات الكثيرة ...

* * *

والصوم أيضاً دليل على الارتفاع فوق مستوى الجسد .

ففيه لا نعطى الجسد كل ما يطلبه من الطعام ، أو كل ما يشتهيه من الطعام . و بهذا نرتفع فوق مستواه . بل نرتفع فوق مستوى المادة بصفة عامة . وهكذا نعطى

الفرصة للروح ، لكى تأخذ مجالها ، متذكرين قول الرب « اعملوا لا للطعام البائد ، بل للطعام الباقى للحياة الأبدية » (يو٦ : ٢٧) . وقول الرسول « لأن اهتمام الجسد هو موت . ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام » (رو٨ : ٦) .

* * *

إن الروح تكون فى حالة أقوى فى وقت الصوم .

فى الصوم تكون صلواتنا أعمق ، وتأملاتنا أعمق . وتكون صلتنا بالله أقوى . وحتى ألحاننا أيضاً . فرق كبير بين أن نسجل لحناً من ألحان البصخة فى نفس أسبوع الآلام ، وأن نسجل نفس اللحن فى غير فترة الصوم . وليس أثر الصوم فى تقوية الروح قاصراً على المسيحيين فقط ، بل إن الهندوس واليوجا والبوذيين يجدون قوة للروح بتداريب الصوم والنسك ، وتصفوا أرواحهم أكثر...

* * *

إذن فالصوم ليس نافعاً فقط من جهة محاربة الأخطاء والسلبيات ، إنما يفيد ايجابياً فى تقوية الروح .

لذلك نجد غالبية المناسبات الروحية تسبقها أصوام .

فأسرار الكنيسة مثلاً ، كالمعمودية والميرون والتناول والكهنوت ، لابد أن يسبقها الصوم . وكذلك نوال بركة الأعياد يسبقه الصوم . فنصوم أسابيع طويلة قبل عيدى الميلاد والقيامة ، وقبل عيد الرسل وعيد العذراء وقبل عيد الغطاس نصوم يوم البرامون . وما أجمل قول سفر أعمال الرسل (قبل وضع الأيدى على برنابا شاول) : « وفيما هم يخدمون الرب و يصومون ، قال الروح القدس : افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه . فصاموا حينئذ وصلوا ، و وضعوا عليهما الأيادى .. » (أع ١٣ : ٢ ، ٣) .

* * *

ومن أجمل ما قيل أيضاً فى أثر الصوم روحياً :

العلاقة بين الصوم وإخراج الشياطين :

وفى ذلك قال السيد الرب فى معجزة إخراجه لشيطان عنيد لم يقوَ التلاميذ على إخراجه ... حينئذ قال الرب « وأما هذا الجنس ، فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم »

(مت ١٧ : ٢١)... ذلك لأن صلاة الصائم تكون لها روحياتها وتأثيرها ، والصائم يكون أكثر قرباً من الله ، وأكثر قوة على الشياطين .

* * *

وكان القديسون يستخدمون الصوم فى وقت الضيقات .

ولنا مثال واضح جداً فى ذلك صوم استير والشعب كله ، حينما تعرضوا لمؤامرة هامان (أش ٤ : ١٦) وكيف كانت استجابة الرب سريعة وعجيبة . كذلك نسمع عن صوم نحميا لما جاءته الأخبار أن « سور أورشليم منهدم، وأبوابها محروقة بالنار» (نح ١ : ٣، ٤) . ويروى سفر نحميا أيضاً كيف كانت استجابة الرب سريعة وعجيبة... كذلك يروى لنا الكتاب كيف صام عزرا وهو باكٍ ، وكيف كان تأثير ذلك فى تنقية الشعب وتطهيره . كما يروى لنا الكتاب أيضاً صوم دانيال النبى وأثر ذلك (دا ٩ : ٣، ٢١) (دا ١٠ : ٣، ١٢) .

* * *

وكان للصوم تأثيره أيضاً فى مجال التوبة ...

لقد تاب أهل نينوى . ولم تكن توبتهم مجرد رجوعهم عن حياة الشر، وإنما امتزجت هذه التوبة بصوم ونسك شديدين ، اشترك فيه الشعب كله وملكهم . وقبل الله صومهم وتوبتهم وغفر لهم خطاياهم (يون ٣) .

* * *

ومن أروع ما قيل فى امتزاج التوبة بالصوم ، قول الوحى الإلهى فى سفر يوئيل النبى « الآن يقول الرب : إرجعوا إلىّ بكل قلوبكم ، و بالصوم و بالبكاء والنوح » (يوء ٢ : ١٢) . وداود النبى يشرح عمق صومه فيقول « أذللت بالصوم نفسى » (مز ٣٥ : ١٣) وأيضاً « أبكيت بالصوم نفسى» (مز ٦٩ : ١٠) .

وكثير من صلوات الآباء والأنبياء من أجل طلب المغفرة ، كانت مصحوبة بصوم ، كصلوات دانيال وعزرا طلباً لمغفرة خطايا الشعب .

* * *

والصوم أيضاً له علاقته بالخدمة .

ولعل أبرز مثل لذلك السيد المسيح نفسه الذى بدأ خدمته بصوم أربعين يوماً . وعلى

نسقه كل الآباء الأساقفة والكهنة الجدد يبدأون خدمتهم الكهنوتية بالصوم... ونفس الآباء الرسل القديسين بدأوا خدمتهم كذلك بالصوم. وتحقق فيهم قول السيد نفسه «حين يُرفع العريس عنهم، حينئذ يصومون» (مر٢: ٢٠).

* * *

ولم يكن الصوم فقط فى بدء خدمة الآباء الرسل، بل كان يتخللها أيضاً. وفى ذلك يقول القديس بولس الرسول عن خدمته «فى أصوام مراراً كثيرة» (٢كو١١: ٢٧). و يقول أيضاً «بل فى كل شيء نظهر أنفسنا كخدام الله... فى أتعاب فى أسهار فى أصوام...» (٢كو٦: ٤، ٥)...

أتراك يا أخى جرّبت فى حياتك الصوم من أجل الخدمة، والصوم لحل مشاكلها ولحل المشاكل عموماً؟

الصوم الروحى المقبول :

ولكن لعل البعض يسأل الرب، كما حدث فى أيام اشعياء النبى، و يقول:

لماذا صمنا ولم تنظر؟ أذللنا أنفسنا ولم تلاحظ؟ (أش ٥٨: ٣).

ويجيبك الرب كما أجاب أولئك وقال لهم: «أمثل هذا يكون صوماً أختاره؟!» (أش ٥٨: ٥).

* * *

إعلم يا أخى أنه ليس كل صوم مقبولاً أمام الله. فالفريسى الذى كان يصوم يومين فى الأسبوع، لم يخرج من الهيكل مبرراً كما خرج العشار (لو١٨: ١٢، ١٤). وكذلك الصوم البعيد عن التوبة، مثل صوم أولئك الخطاة أيام ارمياء النبى الذين قال عنهم الرب «حين يصومون لا أسمع صراخهم، وحين يصعدون محرقة وتقدمة لا أقبلهم» (أر١٤: ١١، ١٢). وكذلك أيضاً صوم المرائين، الذين يظهرون للناس صائمين (مت٦: ١٦- ١٨).

* * *

فلا تقل إذن، صمت ولم أستفد روحياً !!

إن حدث ذلك ، فربما تكون أصوامك بطريقة غير روحية . أو أنك تصوم وفى نفس الوقت تحيا فى الخطية !! إذن علينا أن نعرف كيف نصوم ؟ وما هو المعنى الحقيقى للصوم ؟ وكيف نستفيد منه روحياً ؟

* * *

كثير من الناس يهتمون فى الصوم بشكلياته ، أو أنهم يفهمونه على أنه مجرد الطعام النباتى !! أو أنهم لا يهتمون بالجانب الروحى خلال الصوم !! لهؤلاء أقول : إن تعريف الصوم من جهة الجسد هو أنه الامتناع عن الطعام فترة معينة من الوقت ، يعقبها طعام خالٍ من الدسم الحيوانى .

* * *

فهل تمارس هذا الانقطاع عن الطعام والشراب ؟
وهل تصل فيه إلى مرحلة الجوع وتحتملها .

هذا هو التدريب الأول ، أعنى الجوع ... لقد قيل عن صوم السيد المسيح إنه « جاع أخيراً » (مت ٤ : ٢) (لو٤ : ٢) . وقال القديس بولس الرسول عن صومه مع زملائه « فى جوع وعطش ، فى أصوام مراراً كثيرة » (٢كو١١ : ٢٧) . وورد عن صوم القديس بطرس الرسول إنه « جاع كثيراً واشتهى أن يأكل » (أع ١٠ : ١٠) . فهل تختبر الجوع فى صومك ؟

عندما تجوع تشعر بضعفك ، فلا تفتر بقوتك ، بل تلجأ إلى قوة الله لتسندك . وعندما تجوع وتحتمل الجوع ، تكتسب فضيلة الاحتمال وضبط النفس . لذلك لا تأكل كلما جعت أثناء الصوم ، إنما أصبر واحتمل . وخذ بركة الاحساس بالجوع واحتماله والصبر عليه وأيضاً عندما تجوع تشعر بألم الفقراء الذين ليس لديهم ما يأكلونه ، فتشفق عليهم وتعطيهم .... هذا من جهة فترة الانقطاع فى الصوم .

* * *

نصيحة أخرى ، وهى أن تبعد عما تشتهيه ...

تذكر قول دانيال النبى عن صومه « لم آكل طعاماً شهياً ، ولم يدخل فمى لحم ولا خمر » (دا ١٠ : ٣) ... أقول ذلك لأن كثيرين يأكلون مشتهيات كثيرة من الطعام

النباتى ، و يلتذون بها . و بالتالى لا يشعرون حقاً أنهم صائمون ، ولا يستفيدون وقتذاك من صومهم ، و بخاصة إن كانت لهم أم أو زوجة تتفنن فى صنع الطعام (الصيامى) ، وتجعله أشهى من الأطعمة الحيوانية .

ولذلك أضع أمامك هنا ملاحظتين فى صومك : الأولى أنك لا تطلب أصنافاً معينة تلذ لك . والثانية أنه لو وضعت أمامك مثل هذه الأصناف المشتهاة ـ دون أن تطلب ـ لا تملأ شهوتك منها . خذ قليلاً واترك الباقى ، واضبط نفسك . أو اخلط أصنافاً بأصناف ، بحيث تفقد حدة حلاوتها ولذة مذاقها .

* * *

ليتك تتدرج فى الصوم ، حتى تصل ليس فقط إلى الجسد الجائع ، بل إلى الجسد الزاهد .

بحيث يزهد جسدك هذه المتع التى تقدمها الأطعمة . إن عنصر المنع يبدأ أولاً . ولكنك حينما تدرب نفسك عليه وتعتاده ، حينئذ لا تبذل مجهوداً لتمنع نفسك ، لأنك تكون قد زهدت هذا الذى كنت تشتهيه أولاً ، وتمنع نفسك عنه . وهذا الزهد فى الأطعمة والمشروبات يتطور معك حتى تزهد فى ملاذ أخرى كثيرة ، مثل متع الحواس مثلاً ، وشهوات الجسد المتعددة... وحينئذ يرتفع مستواك الروحى ...

* * *

و يدخل عنصر المنع فى مجالات عديدة .

فكما تتدرب على منع فمك عن الطعام والشراب ، تتدرج إلى منع لسانك عن الكلام البطال وعن كل كلمة ليست للبنيان . وأيضاً تمنع ذهنك عن الأفكار الباطلة والخاطئة . وتمنع قلبك عن كل شعور خاطىء ، وعن كل الشهوات والعواطف غير النقية . وتتدرج هكذا من صوم الفم إلى صوم اللسان ، إلى صوم الفكر ، إلى صوم القلب .

* * *

ولا يكون لك فقط جسد صائم ، وإنما أيضاً نفس صائمة ...

و يصبح الصوم مجرد تعبير عن حالة النقاوة الداخلية التى وصلت إليها . و يكون

الصوم عبارة عن فترة روحية تحياها... وبكثرة الممارسة تتعودها، وتصبح فضائلها بالنسبة إليك هى منهج حياة. أعنى أن ما تستفيده روحياً أثناء صومك، لا تفقده حينما ينتهى الصوم وتفطر، بل يستمر معك. حقاً إنه قد تغير نوع طعامك، ولكن لم تتغير الفضائل التى أقتنيتها أثناء الصوم...

* * *

وهنا تفرق بين الإفطار والتسيب.

لأن كثيرين يضبطون أنفسهم أثناء الصوم. فإذا ما انتهى وحلّ العيد، يفقدون كل ما قد اقتنوه، و يظنون أن الإفطار يعنى التسيب وعدم ضبط النفس!! لذلك فالإنسان الذى يتخذ الصوم كواسطة روحية، هو الإنسان الذى يحتفظ فى قلبه وفى نفسه وفى إرادته، بكل ما قد اقتناه أثناء الصوم، فتستمر الفائدة معه. وإن كان الصوم قد ساعده على التخلص من عادة رديئة أو من عادة معينة، لا يعود إلى ذلك مرة أخرى حينما يفطر.

إمتزاج الصوم بالفضائل:

ولكى يستفيد الإنسان من الصوم، ولكى يدخل إلى روحانية الصوم، و يصير الصوم فضيلة لروحه وليس لجسده فقط:

عليه أن يخلط صومه بفضائل معينة تناسب الصوم وتتمشى معه.

* فالصوم لابد أن تصحبه الصلاة. لماذا؟ لأننا نصوم ليس فقط لكى نقهر الجسد ونستعبده (١كو٩: ٢٧)، بل لكى نعطى للروح أيضاً فرصة تتغذى فيها بكل الأغدية الروحية النافعة لها: بالصلاة، والقراءة الروحية، والتأمل، ومحبة الله. وفى قسمة الصوم المقدس فى القداس الإلهى نكرر عبارة «بالصوم والصلاة...» و يقيناً أن الروح إذا أخذت غذاءها، تستطيع أن تحمل الجسد أثناء صومه فلا يتعب. وهذا نلاحظه فى إسبوع الآلام، إذ لا نشعر أبداً بثقل الصوم لأن الروح تتغذى خلاله بالقراءات والألحان والذكريات المقدسة. وهكذا نستطيع أن نقول عن الصوم الروحى:

* * *

إن صوم الجسد ، يكون فرصة لغذاء الروح .

والصوم المصحوب بعشرة الله ، يتحول إلى متعة روحية ، بحيث يشعر الصائم بتعب إن انقطع عن صومه . وهذا ما كان يحدث للآباء المتوحدين والرهبان ، الذين أصبح الصوم بالنسبة إليهم غذاء روحياً ، يفرح قلوبهم و يقربهم إلى الله .

* * *

* الصوم أيضاً لابد أن يرتبط بالتوبة .

لأن المهم فى الروحيات هو القلب النقى ، وليس مجرد الجسد الجائع . وأيضاً لكى يقبل الله صومنا ، ولكى نشعر أننا استفدنا من الصوم .

وهكذا يقول لنا الوحى الإلهى فى سفر يوئيل « قدسوا صوماً ، نادوا باعتكاف » (يوء ٢ : ١٥) . فالصوم إذن هو فترة مقدسة . وكيف تكون مقدسة بدون توبة ؟! وما نحصل عليه من مشاعر التوبة أثناء الصوم ، يجب أن يستمر معنا .

* * *

* الصوم أيضاً يصحبه التذلل أمام الله .

وهكذا قال داود النبى « أذللت بالصوم نفسى » (مز ٣٥ : ١٣) . وفى صوم أهل نينوى ، جلسوا على المسوح والرماد (يون٣) . وكما ينسحق الجسد بالصوم ، كذلك ينبغى أن تنسحق الروح . ولذلك فإن الأصوام تصحب بالمطانيات . ولا تكتفى فيها بأن ينحنى جسدك ، إنما تنحنى روحك أيضاً ، كما قال داود النبى « لصقت بالتراب نفسى » (مز١١٩)

ولم يقل فقط « لصقت بالتراب رأسى » ...

وفى هذا التذلل ، تطلب النفس من الله رحمة ، لها ولغيرها . وأيضاً تعترف بخطاياها وتطلب مغفرة . وكما قال يوئيل النبى « مزقوا قلوبكم لا ثيابكم . وارجعوا إلى الرب إلهكم » (يوء ٢ : ١٣) .

* * *

★ **فالصوم أيضاً تصحبه الصدقة .**

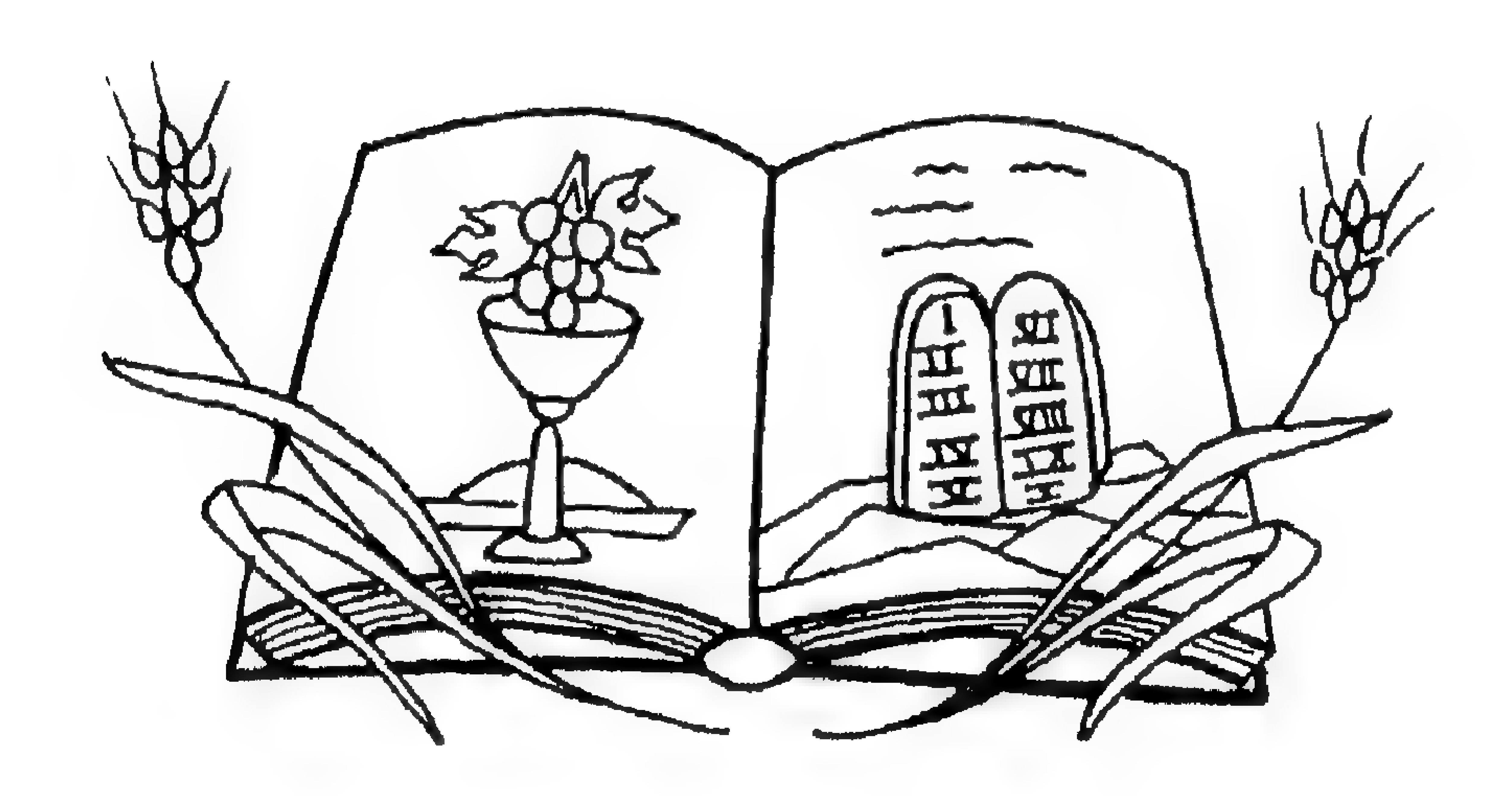
فالإنسان الذى يطلب رحمة من الله فى فترة الصوم ، عليه أن يرحم غيره و يعطيه . وما أجمل ما قاله الرب عن ذلك فى سفر اشعياء النبى « أليس هذا صوماً اختاره : حل قيود الشر... أليس أن تكسر للجائع خبزك ، وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك . إذا رأيت عرياناً أن تكسوه . وأن لا تتغاضى عن لحمك » (أش ٥٨ : ٧) .

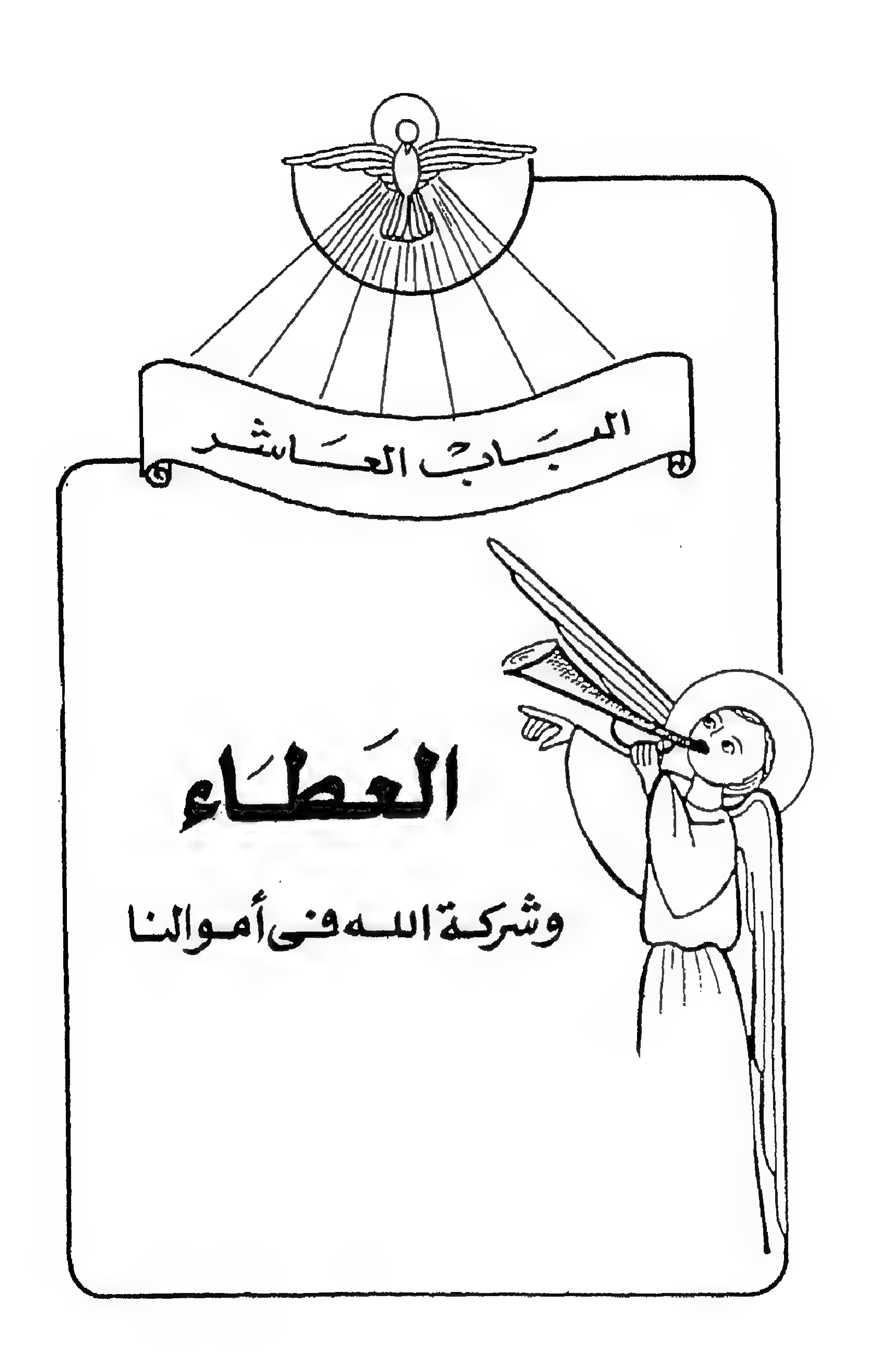
* * *

وموضوع الصوم وروحانيته طويل .

يمكنك إن أردت تفصيلاً أكثر أن تقرأ كتاباً قد طبعته لك بعنوان « روحانية الصوم » . وليعطينا الرب جميعاً صوماً مقدسة يقرب فيه أرواحنا إليه ، حتى نشعر بمتعة الصوم .







الباب العاشر
العطاء
وشركة الله فى أموالنا

من العبارات الجميلة التى وردت فى هذا الموضوع ، قول بولس الرسول لرعاة كنيسة أفسس : متذكرين كلمات الرب يسوع أنه قال :

مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ (أع ٢٠ : ٣٥) .

فلماذا طوّب الرب العطاء ؟ لاشك لأسباب كثيرة :

تطويب العطاء

فى العطاء تشرك الغير فى الذى لك ، بل بالحرى تشرك الله نفسه فى أموالك . ليس فقط حينما تعطى للكنيسة ، إنما حينما تعطى للمحتاجين أيضاً . ألم يقل الرب « ... لأنى جعت فأطعمتمونى ، عطشت فسقيتمونى . كنت غريباً فآويتمونى ، عرياناً فكسوتمونى ، مريضاً فزرتمونى » ... وشرح ذلك فى قوله عن كل هؤلاء المحتاجين :

« بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتى هؤلاء الأصاغر ، فبى قد فعلتم » (مت ٢٥ : ٣٥- ٤٠).

إذن ما تعطيه لأحد من المحتاجين ، إنما تعطيه للرب نفسه . سواء كان طعاماً لجوعان ، أو كساء لعريان ... أو مجرد زيارة تزورها لمريض أو لسجين ... هذه الزيارة هى أيضاً لون من العطاء ، تعطى فيه حباً ومشاركة وجدانية ، عطاء للنفس وليس للجسد ...

* * *

العطاء إذن هو خروج من الذات للشركة مع الآخرين .

الإنسان المنطوى على ذاته ، يبعد عن الغير ، لا يأخذ ولا يعطى . والإنسان الأنانى يحب دائماً أن يأخذ لا أن يعطى . والإنسان الاجتماعى يأخذ من الناس و يعطى . أما الإنسان المحب الباذل ، فهو الذى دائماً يعطى . هو الذى يفضل غيره على نفسه ...

يأخذ دائماً من نفسه ، لكي يعطى لغيره .

ومن هنا كانت فضيلة العطاء تمتزج على الدوام بإنكار الذات. فيها تكون الذات فى المتكأ الأخير، بينما الأولوية للغير. لا يفكر الإنسان فى احتياجاته الشخصية ولوازمه ، إنما يفضل غيره على نفسه . وهكذا فعلت أرملة صرفة صيدا فى أيام المجاعة ، حينما قدمت لإيليا النبى حفنة الدقيق التى عندها ، والقليل مما فى كوز الزيت ، لهذا بارك الله بيتها بركة عظيمة (١مل ٧: ١١- ١٩) .

* * *

وبالمثل فعلت الأرملة التى دفعت فلسين فى الصندوق ، فطوبها الرب أكثر من كل الذين أعطوا . لماذا؟

« لأنها من أعوازها أعطت » (لو ٢١ : ٤) .

وليس فقط أعطت من أعوازها ، بل أنها أيضاً « أعطيت كل معيشتها » ، كل الذى لها . وهنا نرى نفس القاعدة التى ذكرناها وهى تفضيل الذات... يعيش غيرى ، ولو أموت أنا . يستوفى هو حاجته ، أو أساهم فى سد احتياجاته ، مهما كنت أنا محتاجاً . وفى تطويب الرب لهذه الأرملة ، نلمح قاعدة هامة هى :

إن الله ينظر إلى عمق العطاء لا إلى مقداره .

ومن مظاهر هذا العمق ، ارتباط العطاء بالحب . فتحب أن تعطى ، وتحب الذى تعطيه . ولذلك فالعطاء الذى يفيدك روحياً ، هو الذى تعطيه ، لا عن ضجر ولا تذمر ولا اضطرار ، بل بكل مشاعر الرضا والفرح . وكما قال الكتاب :

« المعطى المسرور يحبه الله » (٢كو ٩ : ٧) .

فأنت تحب الإنسان المحتاج . وبدافع المحبة تعطيه . وتظهر محبتك فى طريقة تعاملك وأنت تعطى . ويحس المحتاج بمحبتك فيفرح بها أكثر من فرحه بما يأخذه . إنه يأخذ منك مشاعر قبل أن يأخذ ماديات . ويحس أن عطاءك ليس لوناً من المظاهر أو الرسميات ، بل هو عاطفة ومشاركة ، وأنت أيضاً لا تكون أقل فرحاً منه وأنت تعطيه . كالأم التى تفرح وهى تعطى لابنها ، فرحاً سابقاً للعطاء ، ومصاحباً له ، وفرحاً بفرح ابنها وهو يأخذ .

ولنا مثال كتابى ، بفرح الشعب حينما كان يعطى لبناء الهيكل أيام داود النبى .

وفى ذلك يقول الكتاب « وفرح الشعب بانتدابهم ، لأنهم بقلب كامل انتدبوا للرب (دفعوا بارادتهم)... وداود الملك فرح فرحاً عظيماً . وبارك الرب أمام كل الجماعة وقال « ولكن من أنا ومن هو شعبى ، حتى نستطيع أن ننتدب هكذا؟! لأن منك الجميع ، ومن يدك أعطيناك » « أيها الرب إلهنا ، كل هذه الثروة التى هيأناها لنبنى لك بيتاً ... إنما هى من يدك ولك الكل » (١أى ٢٩ : ٩ ، ١٤ ، ١٦) .

* * *

جميلة هذه العبارة « من يدك أعطيناك » .

نحن لا نملك شيئاً . كل منا يقول ما قاله أيوب الصديق « عرياناً خرجت من بطن أمى » (أى ١ : ٢١) . وكل ما نملكه حالياً ، نقول فيه أيضاً مع أيوب « الرب أعطى » . ونقول للرب مع داود « هو من يدك ، ولك الكل » . لذلك حسناً أننا فى كل عطاء نقدمه للرب ، نقول له فيه « من يدك أعطيناك » .

* * *

حقاً ، إنه تواضع من الله الغنى ، أن يأخذ منا » .

إنه يعطينا فرصة نعبر فيها عن مشاعرنا . تماماً مثل الأب الذى يقبل هدية من أبنه ، يعبر بها الابن عن محبته لأبيه ، بينما ثمن هذه الهدية هو أيضاً من مال أبيه ، وكأنه يقول له كذلك « من يدك أعطيناك » ... الله الغنى ، مصدر كل غنى ، الذى له الأرض وما عليها » (مز ٢٤ : ١) الله الذى يشبع كل حى من رضاه ، من محبته يحب أن يشركنا معه فى العناية ببيته وبأولاده ، ويكافئنا على ذلك ...

* * *

يعطينا ما نعطيه ، ويكافئنا حينما نعطى ... وفى كل ذلك يدربنا على العطاء .

يعطينا الحياة والوجود . ثم يقول لنا : فى كل أسبوع حياة أعطيه لكم ، إعطونى منه يوماً يُسمى « يوم الرب » ... وأعطيكم مالاً . وفى كل ما أعطيه لكم من مال ،

اعطونى العشر... وفى كل ذلك نقول له : يارب من يدك أعطيناك ... أنت هو المعطى لنا ، ولمن نعطيهم . وأنت أيضاً الذى تعطينا محبة العطاء .

* * *

اعطنى صحة وقوة ، وأنا أخدمك بها .

وكلما أتعب فى خدمتك ، وكلما أبذل فى خدمتك ، لا أحسب نفسى مطلقاً أننى قد أعطيتك شيئاً ... فالصحة من عندك ، والقوة من عندك ، ومحبة الخدمة هو أيضاً من عندك ، والوقت الذى أقضيه فى الخدمة هو كذلك من عندك . بل أنا نفسى من عندك . كان ممكناً أنى لا أُولد ولا أوجد . وأنت أعطيتنى هذا الوجود الذى أخدمك به ، وأعطيتنى الكلمة التى أقولها ... وفى كل خدمتى لك وتعبى من أجلك ، أقول « من يدك أعطيناك » .

كيف تعطى ؟

لذلك كله ، ينبغى أن يكون العطاء بغير افتخار .

لا افتخار باللسان ، ولا بمشاعر القلب من الداخل ، ولا بالفكر... وكأنك قد أعطيت من عندك !!... هنا وأتذكر عمق الكلمات التى قالها الرسول « أى شىء لك لم تأخذه ؟! وإن كنت قد أخذت ، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ ؟! » (١كو٤ : ٧) ... وإن كان كل ما نعطيه قد أخذناه من الرب ، ألا يكون افتخارنا بالعطاء افتخاراً باطلاً ؟!

* * *

لذلك أمر الله أن يكون العطاء فى الخفاء .

وقال « احترزوا من أن تصنعوا صدقة قدام الناس ، لكى ينظروكم . وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السموات » . وقال « لتكون صدقتك فى الخفاء ، وأبوك الذى يرى فى الخفاء هو يجازيك علانية » (مت ٦ : ١ ، ٤) . وهذا الخفاء ، لا يقصد به الرب أن يكون خفاء على الناس فقط ، وإنما على نفسك أيضاً . فلا تعدّ أو تحصى كم أعطيت ، وإنما :

« لا تعرف شمالك ، ما تفعله يمينك » (مت ٦ : ٣) .

لا تذكر كم أعطيت ، ولا تتذكر كم أعطيت ... ولا تحسب عطاياك . وحاول أن تنساها جميعها ، حتى لا يحاربك بذلك شيطان المجد الباطل ، وأيضاً حتى لا تستوفى خيراتك على الأرض من تمجيد ذاتك لك ...

★ ★ ★

روى عن القديسة ميلانيا ، فى بدء حياتها الروحية قبل أن تترهب ، حينما كانت تقدم إحسانات كثيرة للأديرة والرهبان ... أنها فى إحدى المرات وضعت فى كيس خمسمائة قطعة من الذهب ، وسلمته للقديس الأنبا بموا ليعطيه للرهبان الساكنين فى البرية الداخلية . فنادى القديس على تلميذه ، وسلّمه الكيس كما هو دون أن يفتحه وكلفه بتوزيعه على أولئك الرهبان ... وهنا قالت له ميلانيا « ولكنك لم تفتحه يا أبى لتعرف كم فيه ؟ » . فرد عليها القديس قائلاً « إن كنتِ قدمتِ هذا المال لله ، فالله يعرف مقداره كم هو » ... وكان ذلك درساً لميلانيا .

★ ★ ★

صفة أخرى من صفات العطاء ، وهى السخاء .

يقول الكتاب « المعطى فبسخاء » (رو ١٢ : ٨) . ويأمرنا أيضاً أن نكون « أسخياء فى العطاء ، كرماء فى التوزيع » (١تى٦ : ١٨) . ويقول « من يزرع بالشح ، فبالشح أيضاً يحصد . ومن يزرع بالبركات ، فبالبركات أيضاً يحصد » (٢كو٩ : ٦) . ويعلل الرب ذلك بقوله « بالكيل الذى به تكيلون ، يكال لكم » (لو٦ : ٣٨) .

★ ★ ★

لا يكفى إذن أن تعطى ، إنما كن كريماً فى عطائك .

أمامنا مثل جميل فى الكتاب هو أرونه اليبوسى ، حينما أراد داود الملك أن يشترى منه بيدره لكى يبنى مذبحاً للرب . ففرح أرونة بذلك ، وأراد أن يتبرع بالبيدر وكل ما فيه . ولذلك قال لداود عن البيدر « فليأخذه سيدى الملك ، ويُصعد ما يحسن فى عينيه . أنظر : البقر للمحرقة . والنوارج وأدوات البقر حطباً » (٢صم ٢٤ : ٢٢ .) « الكل دفعه أرونة إلى الملك . ولكن داود قال لأرونة « بل اشترى منك بثمن ، ولا أصعد

للرب إلهى محرقات مجانية » ... كل منهما يريد أن يدفع ، و برضى وفرح ، و بسخاء ...

* * *

ولنتذكر قصة أبينا ابراهيم ، لما زاره ثلاثة رجال :

قال لأمنا سارة « إسرعى بثلاث كيلات دقيق ... واصنعى خبز ملّه » « ثم ركض ابراهيم إلى البقر، وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً ، وأعطاه للغلام ، فأسرع ليعمله . ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذى عمله ، ووضعها قدامهم » (تك ١٨ : ٦ - ٨) ... هل ثلاثة رجال يحتاجون إلى ثلاثة كيلات دقيق ... وإلى عجل بأكمله ، بالإضافة إلى الزبد واللبن ؟ أم هو كرم أبينا ابراهيم ؟ ... أو أنه لفرحه بضيوفه أراد أن يأكل الكل معهم ، الغلمان ورعاة الغنم يأكلون من العجل ، وأيضاً من الخبز الساخن ... معهم .

* * *

وبنفس الكرم فى عطائنا ، يعاملنا الله ...

وهكذا قال « اعطوا تعطوا ، كيلاً جيداً ملبداً مهزوزاً فائضاً ، يعطون فى أحضانكم » (لو٦ : ٣٨) . وأيضاً « هاتوا جميع العشور إلى الخزانة .. وجربونى بهذا قال رب الجنود ، إن كنت لا أفتح لكم كوى السموات ، وأفيض عليكم بركة حتى لا توسع ... » (ملا٣: ١٠) ... وقيل أيضاً « أكرم الرب من مالك ومن كل باكورات غلتك ، فتمتلىء خزائنك شبعاً ، وتفيض معاصرك مسطاراً » (أم٣: ٩) .

* * *

ومن الآيات التى تدعو إلى الكرم فى العطاء ، قول الرب ...

اذهب بع كل مالك ، واعطه للفقراء (مت ١٩ : ٢١) .

وأيضاً « بيعوا امتعتكم واعطوا صدقة » (لو ١٢ : ٣٣) . وكذلك قوله « من سألك فاعطه . ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده » (لو٦: ٣٠) . وأيضاً يقول الكتاب « من له ثوبان، فليعط من ليس له . ومن له طعام ، فليفعل هكذا » (لو٣: ١١) .

* * *

ومن الصفات الجميلة فى العطاء :

⋆ أن تعطى دون أن يطلب منك ذلك . فهكذا يفعل أبونا السماوى معنا . وهكذا يفعل الأب والأم مع أولادهم. لتكن لك الحساسية نحو ما يحتاجه الناس، ولا تحوجهم أن يسألوا و يطلبوا .

⋆ لا تؤجل العطاء . فربما التأخير يسبب أضراراً للمحتاجين . وفى ذلك يقول الكتاب «لا تمنع الخير عن أهله ، حين يكون فى طاقة يدك أن تفعله. لا تقل لصاحبك : اذهب وعد فأعطيك غداً ، وموجود عندك» (أم ٣ : ٢٧، ٢٨) .

* * *

⋆ درب نفسك أن تعطى من أفضل ما عندك .

فكثيرون لا يعطون إلا الملابس الممزقة أو القديمة ، والأشياء التالفة عندهم أو المرفوضة منهم ... هذه يقدمونها للمسيح فى أشخاص الفقراء . ليتنا فى كل ذلك نتذكر قرابين هابيل الصديق ، إذ قيل عنه «وقدّم هابيل من أبكار غنمه ومن سمانها . فنظر الرب إلى هابيل وقربانه» (تك ٤ : ٤)... «من أبكار غنمه ومن سمانها» أى أفضل ما عنده .

أمثلة

لقد قدّم لنا التاريخ أمثلة عجيبة فى العطاء .

القديس الأنبا ابرام اسقف الفيوم ، والقديس الأنبا صرابامون أبو طرحه أسقف المنوفية ، وقصص عطائهما كثيرة جداً وعجيبة ، ليس الآن مجالها ... والقديس يوحنا الرحوم الذى باع كل شيء وأعطاه للفقراء . وإذ لم يجد شيئاً آخر يبيعه ، باع نفسه عبداً ، وتبرع بالثمن للفقراء . أيضاً القديس سيرابيون ، الذى أعطى ثوبه لفقير ومشى عرياناً وباع إنجيله أيضاً وأعطى الثمن للفقراء . فلما سأله تلميذه عن ذلك ، أجابه : كان الإنجيل يقول لى إذهب بع كل مالك واعطه للفقراء ، فبعته إذ لم يكن لى غيره .

* * *

وفى العصر الرسولى قيل «كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت، كانوا يبيعونها و يأتون بأثمان المبيعات و يضعونها عند أرجل الرسل. فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج (أع ٤ : ٣٤، ٣٥).

فما مركز عطائنا من كل هؤلاء.

شركة الله فى أموالك

يشترك الله فى مالك لكى يباركه، لا ليأخذ منه، فهو مصدر لكل غنى. و يشترك فى مالك، لكى يشركك معه فى عمل الخير الذى يمكن أن يقوم به وحده، ولكنه -من تواضعه- يحب أن يتم هذا الخير بواسطتك.

* * *

أقدم اشتراك لله فيما أعطاه للإنسان، كان هو الذبائح والمحرقات.

وهو أمر قديم جداً، أقدم من الشريعة المكتوبة. بل هو منذ نشأة الإنسان نفسه. و يروى لنا الكتاب تقدمة هابيل البار فيقول إنه «قدم للرب من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه» (تك ١ : ٤). ولعل هابيل أخذ فكرة تقديم الذبيحة والمحرقة عن أبيه آدم الذى أخذها من الله نفسه. وهنا نرى أيضاً نشأة التقليد Tradition ونشأة الذبائح، ونشأة التقدمات، أعنى تقديم شيء لله، بما كان يحمله ذلك من رمز.

* * *

واستمرت فكرة الذبائح والمحرقات فى تاريخ البشرية.

نسمع عن المحرقات التى أصعدها أبونا نوح من على المذبح بعد رسو الفلك، فتنسم الرب منها رائحة الرضا (تك ٨: ٢٠، ٢١). ونسمع عن ذبائح أبينا ابراهيم (تك ١٢). وعن محرقات أيوب الصديق (أى ١ : ٥)... ونظمت الذبائح والمحرقات والتقدمات فى الشريعة المكتوبة، فى سفر اللاويين أيام موسى النبى. وكانت تحمل رموزاً.

وإن كانت ذبيحة المسيح قد حلّت محل خروف الفصح (خر١٢) ومحل المحرقة وذبيحة الخطية وذبيحة الإثم، إلا أن ذبيحة السلامة التى كانت تعبر عن الشكر وعرفاناً بجميل الرب، ويأكل منها مقدمها وأصحابه معه، لا يزال الكثيرون يقدمونها إلى الآن، بأسلوب يختلف عن العهد القديم فى كثير من التفاصيل ...

العشــور

ننتقل إلى نقطة أخرى وهى العشور ...

والعشور هى أيضاً أقدم من الشريعة المكتوبة. نسمع عن أبينا يعقوب لما رأى سلماً بين السماء والأرض، أنه قال الله «إن كان الله معى وحفظنى ... ورجعت بسلام إلى بيت أبى، يكون الرب لى إلهاً .. وكل ما تعطينى فإنى أعشره لك» (تك ٢٨: ٢٠-٢٢).

ولعل يعقوب قد أخذ فكرة العشور عن جده أبينا ابراهيم، الذى قدم العشور إلى ملكى صادق كاهن الله العلى «فأعطاه عشراً من كل شيء» (تك ١٤: ٢٠).

★ ★ ★

ثم أمر الله بالعشور فى الشريعة أيام موسى النبى.

فقال «تعشيراً تعشر كل محصول زرعك الذى يخرج من الحقل سنة بسنة» (تث ١٤: ٢٢). «وكل عشر الأرض من كل حبوب الأرض وأثمار الشجر، فهو للرب، قدس للرب ...» (لا ٢٧: ٣٠). «عشر حنطتك وخمرك وزيتك» (تث ١٢: ١٧) (تث ١٤: ٢٣) «وأما كل عشر البقر والغنم، فكل ما يعبر تحت العصا، يكون العاشر قدساً للرب» (لا ٢٧: ٣٢). وبالإجمال لخص زكا العشار كل ذلك فى عبارة واحدة قال فيها «وأعشر جميع أموالى» (لو ١٨: ١٢) أو هى عبارة أبينا يعقوب أبي الآباء «وكل ما تعطينى أعشره لك» (تك ٢٠: ٢٢).

حتى الكاهن الذى كان يأخذ العشور من الشعب، كان يقدم عشره من ... رفيعة للرب. وكانت أعشار الأعشار هذه تسمى الرفائع (عد ١٨: ٢٦، ٢٨)

* * *

والذى لا يدفع العشور ، يُعتبر أنه سلب الرب .

ورد هذا صراحة فى سفر ملاخى النبى ، حيث قال الرب « أيسلب الإنسان ؟! فإنكم سلبتمونى. فقلتم بما سلبناك ؟ فى العشور والتقدمة ... هاتوا جميع العشور إلى الخزنة ... وجربونى قال رب الجنود : إن كنت لا أفتح لكم كوى السماء ، وأفيض عليكم بركة حتى لا توسع .. » (ملا ٣ : ٨- ١٠) .

* * *

المال الذى لا تدفعه فى العشور ، هو مال ظلم .

لأنك سلبت فيه الرب ، وظلمت الكنيسة كما ظلمت الفقراء أصحابه .. لذلك قال السيد الرب « اصنعوا لكم أصدقاء من مال الظلم » (لو١٦ : ٩) . هؤلاء الأصدقاء هم الفقراء الذين يصلون من أجلكم « حتى يقبلوكم فى المظال الأبدية » .

حتى إن كنت محتاجاً ، ادفع العشور متمثلاً بتلك المرأة التى دفعت من أعوازها (لو٢١ : ٤) . ولعل البعض يسأل هنا :

* * *

هل نعطى أقرباءنا من العشور ؟!

نعم ، اعطهم إن كانوا محتاجين . فإن الرسول يقول « إن كان أحد لا يعتنى بخاصته ولاسيما أهل بيته ، فقد أنكر الإيمان وصار شراً من غير المؤمن » (١تى ٥ : ٨) ... إذن اعطهم ، ولكن لا تعطهم وحدهم . لئلا يظن أن مجرد الواجب ، أو رابطة الدم ، هى التى دفعتك للعطاء . فإن أعطيتهم الكل ، تكون قد بخست حق باقى الفقراء المستحقين معهم أو الذين قد يكونون أكثر استحقاقاً للعطاء منهم ...

* * *

كل مال يصل إليك ، إفرز عشره للرب ...

سواء كان مرتبك الثابت ، أو موارد أخرى إضافية ، أو منحاً أو موارد طارئة . سواء كان مالاً أو أشياء عينية تعرف قيمتها و يدفع عشرها ... الكل تخصم عشره ، وتفرزه فى صندوق خاص بالرب . ولا تقع فى الخطأ الذى يقع فيه كثيرون : إذ ينفقون من إيراداتهم أولاً ، ثم يفحصون هل تبقى لله شيء أم لم يتبقَ !! جاعلين استحقاقات

الرب فى آخر القائمة ، أو قد ينسونها ! أو يعتبرون مصروفاتهم الأخرى تحت قائمة الضروريات . وأما نصيب الرب ، فمن الكماليات أو من الفائض ! أما أنت فاخصمه من إيرادك مباشرة ، كما تخصم منك أمور رسمية معينة ...

* * *

واعلم أن العشور هى الحد الأدنى فى العطاء .

إنها تدخل فى العطاء اليهودى وليس المسيحى . أما فى المسيحية ، فيقول الكتاب « من سألك فاعطه » (مت ٥ : ٤٢) . ويقول أيضاً « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض ... بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء » (مت ٦ : ١٩ ، ٢٠) . إذن لا يصح أن تكتفى بدفع العشور ، ولا تعطى من يحتاج بينما عندك ما تكنزه .

* * *

ولا تقل عند دفع العشور إن الله قد استوفى حقه !! أو استوفى كل حقه عليك !!

ويستريح ضميرك عند هذا الحد ، وتغلق قلبك أمام طلبات المحتاجين ! فإن الكتاب يقول « من يسد أذنيه عن صراخ المسكين ، فهو أيضاً يصرخ ولا يستجاب » (أم ٢١ : ١٣) ... لتكن المحبة ثابتة فى قلبك ، ولا تتعامل مع الله ومع الكنيسة ومع الفقراء بعلم الحساب دون القلب !! وكلما عرضت أمامك مناسبة لعمل الرحمة ، لا تغلق أمامها قلبك بحجة أنك قد دفعت العشور...

* * *

فى عطائك ارتفع فوق مستوى العشور ...

فقد قال السيد المسيح له المجد « إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين ، لن تدخلوا ملكوت السموات » (مت ٥ : ٢٠) . والكتبة والفريسيون كانوا بلاشك يدفعون العشور . إذن لابد أن تدفع أكثر . لا تكن ناموسياً تكتفى بحرفية الناموس . إنما فى عطائك تعامل بقلبك وبحبك . ولا تحب مالك أكثر مما تحب الفقراء . واذكر قول الرب « إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء » (مت ١٩ : ٢١) . وإن سمعت هذه العبارة ، فلا تمضى حزيناً مثل الشاب الغنى الذى كان أول من سمعها ...

على أن العشور ليست هى كل شركة الرب فى مالك .

هناك أيضاً وصية البكور :

البكـــور

نسمع عرضاً عن البكور فى تقدمة هابيل البار الذى قدم من «أبكار غنمه ومن سمانها» (تك ٤ : ٤). يعنى أفضل ما عنده. وكان ذلك طبعاً قبل الشريعة المكتوبة ... أما فى شريعة موسى، فقد نظّم الله البكور فى كل شيء، سواء فى الإنسان أو الحيوان، أو فى ثمار الأشجار. فعن بكور المواليد، قال :

« قدّس لى كل بكر، كل فاتح رحم ... من الناس ومن البهائم. إنه لى » (خر ١٣ : ٢).

وكان الأبكار من كل الشعب من نصيب الرب يخدمونه، إلى أن استبدلهم بسبط لاوى وبنى هرون. فهم الأبكار بالمعنى الرمزى أو الروحى ... وحتى بعد اختيار سبط لاوى، ظل البكر بمكانته كقدس للرب، تقدم عنه ذبيحة فى الهيكل. وهكذا قيل عن السيد المسيح فى يوم الأربعين لمولده «صعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للرب. كما هو مكتوب فى ناموس الرب إن كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوساً للرب، ولكى يقدموا ذبيحة كما قيل فى ناموس الرب» (لو ٢ : ٢٢، ٢٣).

* * *

فما الذى نقدمه للرب من أولادنا ؟!

ألا يشمل العطاء الأبناء أيضاً ؟! إن لم يكن كل بكر، فعلى الأقل بعض الأبناء... إن لم يكن الإبن الوحيد، كما ذهب أبونا ابراهيم ليقدم ابنه وحيده اسحق، فعلى الأقل أحد الأبناء... إن كان مطلوباً للرب ككاهن أو راهب، أو لخدمة التكريس أياً كانت...

* * *

إن تقدمة البكور أقوى من العشور ...

لأنها تكون كل ما للإنسان فى ذلك الوقت ، فالابن البكر عند ولادته يكون هو الابن الوحيد ، وعندما قدمت حنة ابنها صموئيل ، كان وقتذاك ابنها الوحيد . وحينما صار يوحنا نصيباً للرب ، كان هو الابن الوحيد لزكريا واليصابات . وأيضاً السيد المسيح هو الابن البكر للعذراء ، وهو أيضاً ابنها الوحيد ، ليس فقط وقت ولادته ، إنما خلال كل حياتها ... الابن البكر له مكانته الكبيرة ، وله فرحته وإعطاؤه للرب يحمل تفضيلاً للرب على النفس بالنسبة إلى المعطى .

* * *

ولم تقتصر وصية البكور على الابن البكر ، وإنما شملت كل البكور ، فأمر الرب من جهة :

بكور المحاصيل ، وثمار الأشجار .

وقال فى ذلك « أول أبكار أرضك تحضره للرب إلهك » (خر٢٣ : ١٩) . « تأتون بحزمة أول حصيدكم إلى الكاهن . فيردد الحزمة أمام الرب للرضا عنكم » (لا ٢٣ : ١٠) . « تأخذون من أول كل ثمر الأرض ... وتضعه فى سلة .. وتأتى (به) إلى الكاهن ... ثم تضعه أمام الرب إلهك » (تث٢٦ : ٢- ١٠) .

* * *

كذلك أمر الرب من جهة بكور الحيوانات .

فقال « تقدم للرب كل فاتح رحم ، وكل بكر من نتاج البهائم التى تكون لك ، الذكور للرب . ولكن كل بكر حمار تفديه بشاه » (خر١٣ : ١٢ ، ١٣) ... « لى كل فاتح رحم . كل ما يولد ذكراً من مواشيك ، بكراً من ثور وشاه . أما بكر الحمار فتفديه بشاه » (خر٣٤ : ١٩) .

* * *

وأيضاً أول العجين ...

حتى حينما يعجنون للخبز ، ورد فى سفر حزقيال « وتعطون الكاهن أوائل عجينكم ، فتحل البركة على بيتك » (حز٤٤ : ٣٠) .

وهكذا يأخذ الرب من أوائل (بكور) كل الذى لك. فتجعل الرب أولاً فى كل شىء. يكون أول من يأخذ من شجرك وأرضك وغنمك و بهائمك، بل أيضاً أول نسلك. فيبارك الرب الكل. وحتى حينما أخذ اللاو يين بدلاً من الأ بكار، طلب أن تقدم ذبيحة عن بكرك، لتفديه، فقال «وكل بكر إنسان من أولادك تفديه» (خر١٣: ١٣، ١٥).

* * *

كيف ننفذ إذن وصية البكور فى أيامنا.

ليست ثروة كل الناس محاصيل الأرض أو نتاج الماشية والأغنام. ففى عصرنا الحاضر:

★ تدفع للرب أول مرتب تستلمه فى وظيفتك، و يفضل أول شهر من مرتبك. فالذى يعين فى وظيفة فى الربع الأخير من الشهر، هل يكفى أن يدفع هذا الربع باعتباره البكور؟

* * *

★ تدفع للرب أيضاً أول علاوة، وأول زيادة فى ترقيتك، وأول منحة، وأول أجر لعمل إضافى: بالنسبة إلى الطبيب مثلاً أول كشف أو أول عملية جراحية. و بالنسبة إلى المدرس أول درس خصوصي... وهكذا فى باقى الحرف والوظائف.

بالإضافة إلى العشور والبكور توجد مشاركة أخرى لله. فى مالك وهى:

حق الله فى النذور:

النـــذور

والنذور هى شىء آخر غير العشور والبكور. هى تعهد منك أمام الله، فى حال خير يقدمه الله لك، أو مساعدة فى أمر ما، أو إنقاذ من ضيقة... ومن أجمل وأشمل ما ورد عن النذور فى الكتاب، ما ورد فى سفر الجامعة الاصحاح الخامس. حيث يشمل:

الوفاء بالنذر، عدم تأخيره، عدم تغييره ...

فقيل : « أوفِ بما نذرته . أن لا تنذر خير من أن تنذر ولا تفى » (جا ٥ : ٤ ، ٥)
« إذا نذرت نذراً لله ، فلا تتأخر عن الوفاء به » (جا ٥ : ٤) . « لا تستعجل فمك ، ولا يسرع قلبك إلى نطق كلام قدام الله ... لا تقل قدام الملاك أنه سهو. لماذا يغضب الله على قولك و يفسد عمل يديك » (جا ٥ : ٢ ، ٦) .

* * *

وحينما نتكلم عن النذر ، نقصد نذر المال أو نذر الحياة ...

لا تتسرع فى أن تنذر شيئاً للرب لا تقدر فيما بعد على تنفيذه . ولا تنذر البتولية مثلاً فى حالة انفعال روحى ، ثم تدرك أنك غير مستطيع أن تحيا هذه الحياة . فبدلاً من النذر، قدّم رغباتك كصلاة . قل له : يارب ، هذه هى أمنية قلبى . فإن رأيت أن ذلك نافع لى وممكن ، حققه لى ، وامنحنى القوة على التنفيذ . ولتكن مشيئتك فى حياتى .
نقطة أخرى فى شركة الرب فى أموالك وهى :

القـــرابـــين

القرابين التى تتقرب بها إلى الله :

والكنيسة تذكر كل تلك العطايا فى « أوشية القرابين » ... الذين يقدمون للكنيسة : الخمر والزيت والبخور والستور، وكتب القراءة وأوانى المذبح . وتطلب أن يعوضهم الرب الفانيات بالباقيات ، والأرضيات بالسماو يات . أصحاب الكثير وأصحاب القليل . بل تصلى أيضاً من أجل « الذين يريدون أن يقدموا وليس لهم ، أى نية العطاء » .

* * *

فهل لك نصيب فى أوشية القرابين ؟

البعض مثلاً يحب أن يقدم دقيقاً نقياً لخبز (الحمل) . والبعض يسأل عن احتياج الكنيسة ليقدمه ، بدلاً من أن يقدم الناس عشرات الستور، بينما تحتاج الكنيسة إلى أشياء أخرى ضرورية . أو يقدم البعض أيقونات عديدة، الكنيسة ليست فى حاجة إليها ، ولا يوجد بينها توافق فى الفن .

* * *

يقدم لنا الكتاب أمثلة أخرى من العناية بالفقراء .

فيقول مثلاً « وعندما تحصدون حصيد أرضكم ، لا تكمل زوايا حقلك فى حصادك . ولقاط حصيدك لا تلتقط . للمسكين والغريب تتركه » (لا ٢٣ : ٢٢) . و يقول أيضاً « ست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها . وأما فى السابعة فتريحها . وتتركها ليأكل فقراء شعبك وفضلتهم تأكلها حيوانات الأرض . وكذلك تفعل بكرمك وزيتونك » (خر ٢٣ : ١٠ ، ١١) . كيف نطبق هذا المبدأ الروحى ، فى الحياة غير الزراعية ؟ ...

* * *

على كل من أجل كلمات الكتاب عن العطاء ، قول الرب **« ولا يظهروا أمامى فارغين » (خر ٢٣ : ١٥) (خر ٣٤ : ٢٠) .**

* * *






الباب الحادى عشر
الخدمة
وشروطها الناجحة

أهمية الخدمة وعموميتها :

ليست الخدمة قاصرة على الذين يعملون فى مجال التعليم ، إنما هى لازمة للكل ونافعة للكل . وتعتبر من الوسائط الروحية العامة . وهى مبدأ روحى عام يطالب به كل مؤمن : الكبار والصغار، المتزوجين وغير المتزوجين . يكفى قول الكتاب :

« من يعرف أن يعمل حسناً ولا يفعل ، فتلك خطية له » (يع ٤ : ١٧) .

فالخطايا ليست هى فقط السلبيات فى تصرفات الإنسان ، إنما عدم عمل الخير يعتبر خطية . ولذلك فالإنسان الروحى هو الذى يعمل الخير باستمرار، كصورة لله الذى نصفه بأنه « صانع الخيرات » . وكما قيل عن السيد المسيح له المجد ، إنه « كان يجول يصنع خيراً » (أع ١٠ : ٣٨) . فهل أنت كذلك ؟

* * *

الإنسان الروحى لا يحيا لنفسه فقط ...

بل إن المثل المشهور يقول « ما عاش من عاش لنفسه فقط » . إذن فى الخدمة لابد أن تخرج من قوقعة نفسك ، لتلتقى بالغير . تخرج من مجال (الأنا) . لتشيع من حبك للكل . وتشعر أن رسالتك فى الحياة أن تفعل خيراً نحو كل من يدفعه الله فى طريقك . وكلما تكتسب خبرة فى الحياة وسعة فى القلب ، تتسع دائرة خدمتك . فلا تقتصر على بيتك وأسرتك ، ولا على أقاربك وجيرانك ومعارفك وزملائك وأصدقاءك ، بل تصل إلى نطاق أوسع وأوسع ...

* * *

والخدمة فى جوهرها ، إن هى إلا تعبير عن الحب المختزن فى القلب من نحو الله والناس ...

فالمفروض فى كل مؤمن أن يحب الله من كل القلب والفكر والنفس . وهذه وصية منذ العهد القديم (تث ٦ : ٥) . وقد تكررت فى العهد الجديد أيضاً (مت ٢٢ : ٣٧-

٣٩). والمحبة ليست مجرد شيء نظرى. فالكتاب يقول «لا نحب بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق» (١يو٣: ١٨). والمحبة العملية تظهر عن طريق الخدمة. فأنت تحب الله، فتعبر عن محبتك له بنشر ملكوته، بخدمة الكنيسة وخدمة الكلمة. وأنت تحب الناس فتخدمهم بكل الوسائل المتاحة لك والنافعة لهم ...

* * *

المهم أن يوجد فى حياة الإنسان، كل إنسان، عنصر البذل والعطاء.

وهكذا تجد أن الخدمة قد أكسبتك فضيلة روحية، هى الحب والعطاء والبذل. وتكون قد استفدت من خدمتك... وقد تخدم الفقراء، وتجد أن الفقراء أو الاحتياج، قد حوّل بعضهم إلى الكذب أو الاحتيال، أو الغش للحصول على ما يريدون. فلا تتبرم بهؤلاء، ولا تيأس منهم، ولا تتضايق، ولا يكون رد الفعل عندك هو أن تعاملهم معاملة سيئة... ربما سمح الله لك أن تلتقى بهؤلاء لتتعلم الاحتمال وطول البال، وأيضاً الحكمة فى التصرف، أو خدمتهم روحياً لكى يتخلصوا من مثل هذه الطباع السيئة. وتكون أنت قد استفدت فضائل روحية فيما تخدمهم...

أنواع من الخدمة:

والخدمة على أنواع: منها الاجتماعية، ومنها أيضاً الروحية، وخدمات أخرى كثيرة...

ومن أجل ما قيل فى الخدمة الروحية، قول الكتاب «من رد خاطئاً عن ضلال طريقه، يخلص نفساً من الموت ويستر كثرة من الخطايا» (يع ٥: ٢٠). وأيضاً «لاحظ نفسك والتعليم وداوم على ذلك. فإنك إن فعلت هذا، تخلص نفسك والذين يسمعونك أيضاً» (١تى ٤: ١٦). إذن هى خدمة تتعلق بخلاص النفس. ما أمجدها!! والكتاب يقول «نائلين غاية إيمانكم خلاص النفوس» (١بط ١: ٩).

* * *

أما الخدمة الاجتماعية، فمن سموها أيضاً جعلها الرب ميزاناً للدينونة فى اليوم الأخير:

إذ يقول للذين عن يمينه « كنت جوعاناً فأطعمتمونى، عطشت فسقيتمونى. كنت غريباً فآويتمونى، عرياناً فكسوتمونى، مريضاً فزرتمونى. محبوساً فأتيتم إلىَّ » (مت ٢٥ : ٣٥- ٤٠). ويشرح ذلك بقوله « بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتى هؤلاء الأصاغر، فبى قد فعلتم ». معتبراً كل هؤلاء المحتاجين كشخصه تماماً...

ويقول الكتاب أيضاً « الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هى هذه: افتقاد اليتامى والأرامل فى ضيقتهم، وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم » (يع ١ : ٢٧).

* * *

وقد رأينا أنواعاً من الخدمة تشمل المجتمع كله. وتتعداه إلى مستوى عالمى...

فالهيئات العالمية مثل الصليب الأحمر وجمعيات الإسعاف، والهيئات الدولية للإغاثة، وأمثالها، هذه التى تقدم معونة لكل محتاج أينما كان، سواء فى البلاد التى حدثت فيها كوارث طبيعية كالفيضانات مثلاً، أو كوارث حربية، أو مجاعات، تجد المعونات تصلها من بلاد بعيدة ربما ما كانت تعرفها من قبل، ولا كانت بينها وبينها صلة. ولكنه الشعور الإنسانى والمحبة نحو الكل، التى تهب من تلقاء ذاتها لإغاثة المحتاج.

* * *

فإن كانت الهيئات العلمانية التى لا صلة لها بالكنيسة تفعل هكذا، فكم بالأولى نحن ؟!

أنت مطالب أن تفعل شيئاً من أجل أخيك الإنسان. وقد أعطانا الرب مثال السامرى الصالح (لوقا ١٠ : ٣٠- ٣٧) الذى أغاث وهو سائر فى الطريق إنساناً، على الرغم من وجود عداوة بين شعبه وشعبه. ولكنها المحبة التى لا تعرف تفريقاً.

ولا يقل أحد فى نفسه « لست مدعواً للخدمة » !! كلا، فأنت مدعو أن تحب الكل، وتعبر عن محبتك بالخدمة. أما الخدمة التعليمية فتحتاج إلى أن ترسلك الكنيسة (رو ١٠ : ١٥) لأنه ليس كل إنسان صالحاً للكرازة والتعليم...

* * *

إذن هى أنواع عديدة من الخدمة. وكل إنسان يخدم حسب النعمة المعطاة من الله.

ولا يستطيع إنسان مطلقاً أن يقول إن الله لم يهبه أية إمكانات للخدمه. لابد أنه يستطيع أن يفعل شيئاً ... والإنسان الخدوم، أقصد الذى فيه روح الخدمة، تجده يخدم فى كل مجال: فى البيت، فى مكان العمل أو الدراسة، فى الكنيسة، فى الطريق، فى النادى ... مع كل أحد. إنه إنسان معطاء. كل من يقابله، لابد أن ينال من عطائه.

* * *

أسأل نفسك إذن: ما نصيب الآخرين فى حياتى ؟

إن التكريس يحتاج إلى دعوة. أما الخدمة العامة فلا تحتاج إلاّ إلى الحب، والدافع القلبى نحو خدمة الآخرين. وهذه فى حد ذاتها دعوة قلبية ...

أتذكر فى إحدى المرات سألنى طبيب جراح عما يستطيع أن يعمله لأجل الآخرين. فقلت له: على الأقل عشر العمليات الجراحية التى تقوم بإجرائها، لتكن للفقراء والمحتاجين. وهكذا يكون لله نصيب فى علمك وعملك. وتعبر عن محبتك للفقراء بالتنازل عن بعض أجرك من مهنتك ...

فوائد الخدمة روحياً:

إن الخدمة تقوى روحيات الخادم. كما أن روحيات الخادم تقوى الخدمة. فأنت فيها تعطى وتأخذ.

ولذلك نعتبر أن الخدمة من الوسائط الروحية، إن سلك فيها الإنسان حسناً. فكما تعطى المخدومين حباً من قلبك، كذلك يشبع قلبك حباً بهذه الخدمة. لاشك أن الإنسان الذى يخدم الأيتام أو المرضى أو المعوقين أو الفقراء والمحتاجين عموماً، يشبع قلبه فى هذه الخدمة بمشاعر عميقة تسمو بنفسه، وتغنيه عن عواطف العالم الزائلة. فإن العاطفة التى يكتسبها الإنسان من ملاقاة الألم والمعاناة، هى أقوى بكثير من العواطف التى تقدمها مجالات اللهو والترف. وهكذا أنت تأخذ من خدمتك أكثر بكثير مما تعطى. مجرد شعورك أنك أسعدت إنساناً، أو حللت مشكلة، يفيض على قلبك بمشاعر عميقة.

وهناك ألوان من الخدمة ، غير التعليم .

كنت أعرف زميلاً فى مدارس الأحد منذ حوالى ٤٥ عاماً ، لم يكن له فصل فى التدريس ، إنما كانت خدمته هى الافتقاد وحل مشاكل الناس قبل أن تتعقد ، وأحياناً حل المشاكل المعقدة . وكان يجد سعادة كبيرة فى هذه الخدمة . وكان يرى يد الله فى كل ما يحله من مشاكل ، أقصد فى المشاكل التى يحلها الله على يديه ، وكان يحكى لنا عن عمل الله ، حديثاً روحياً ممتعاً جداً ...

* * *

إذن من الفوائد التى تتركها الخدمة فى حياتك : الخبرات الروحية .

إنه شرف عظيم لك فى الخدمة أنك تعمل مع الله . كما قال القديس بولس الرسول عن نفسه وعن زميله أبولوس (نحن عاملان مع الله» (١كو٣: ٩) . أنت فى الخدمة تعمل مع الله . و يعمل الله معك ، و يعمل فيك ، و يعمل بك . وفى كل ذلك ترى عجائب من عمله ، وتلمس كيف تتدخل يد الله ، فتحل كل الأمور المعقدة ، أو تفتح لك بعض الأ بواب المغلقة ، أو تقدم لك حلولاً ما كنت تفكر فيها ، أو ترسل لك معونات من حيث لا تدرى . فتمجد الله فى كل عمله . أما الذين لا يخدمون ، فإنهم يحرمون أنفسهم من كل هذه الخبرات ، ومن شركة الله فى الخدمة .

* * *

الخدمة أيضاً تفيدك فى أنها مدرسة للصلاة :

إنك كلما تخدم ، كلما تشعر أن هناك أموراً تحتاج إلى معونة إلهية ، فتتدرب على الصلاة من أجلها ، كما أنك تصلى لكى يبارك الله العمل و يدخل فيه ولا يتركك وحدك . كذلك تصلى لكى تكون خدمتك روحية ، وليست مجرد نشاط أو روتين ، أو مجرد عمل اجتماعى . كذلك كثيراً ما تصلى مع المخدومين ، أو تدخلك الخدمة فى اجتماعات صلاة . وهكذا تتدرب على عمل الصلاة .

* * *

والخدمة عموماً تدخل الإنسان فى جو روحى .

وهذا نافع له بلا شك . إذ يجد نفسه فى جو كنسى ، ومع أشخاص روحيين ،

وملتزماً بمبادىء وقيم روحية. وقد يجد نفسه فى الخدمة ملتزماً أيضاً باجتماعات وقداسات . ويجد نفسه كذلك ملتزماً بحياة روحية خاصة حتى يكون فى خدمته قدوة للمخدومين، أو على الأقل لا يكون عثرة لهم . بل يردد قول الكتاب :

«من أجلهم أقدس أنا ذاتى ، لكى يكونوا هم أيضاً مقدسين فى الحق» (يو١٧: ١٩).

السيد المسيح قال هذه العبارة بمعنى . وأنت تقولها بمعنى آخر، لتكون حياتك مقدسة فى الخدمة، ومثالاً للمخدومين فى كل عمل صالح .

* * *

وقد تقول لله فى صلاتك : إن هؤلاء الناس يارب ، يحتاجون أن أكون متصلاً بك باستمرار من جهتهم. فأعطنى أن تكون لى هذه الصلة بك. ليس من أجلهم فقط، وإنما أيضاً من أجل نفسى، لكى ترعانى وترعاهم، وتحفظنى وتحفظهم. وليتنى أكون جسراً صالحاً يصلون به إليك أو أكون حاملاً لهم أمامك فى قلبى...

وبهذا تجد أن الخدمة أوجدت لك صلة بالله . وأصبحت هذه الصلة من ضروريات الخدمة . وبالتوالى تصبح الخدمة أيضاً ضرورة توصلك بالله باستمرار. ولذلك استطيع أن أقول :

* * *

غالبية الذين تركوا الخدمة فترت حياتهم .

ولم تعد لهم الحرارة التى كانت لهم أثناء خدمتهم، ولا الصلاة ولا العمق ولا الالتزام.. ولم تعد لهم الغيرة المقدسة التى كانت لهم، ولا حتى الفضائل الاجتماعية التى صاحبت الخدمة.

والخدمة أيضاً كثيراً ما تعطى فرصاً أوسع لقراءة الكتاب المقدس، وللمعرفة الروحية بوجه عام. مع ما يصحب ذلك أيضاً من تأمل ومن تفسير، وبخاصة للذين يخدمون خدمة روحية أو تعليمية بكافة أنواعها.

* * *

وهكذا تكون من فائدة الخدمة تنمية المعرفة الروحية، وربما المعرفة الدينية من نواح متعددة.

وهذه المعرفة تأتى من مصادر كثيرة: منها القراءة سواء قراءة الكتاب المقدس أو سير القديسين أو الكتب الروحية. وتأتى أيضاً من حضور الاجتماعات الدينية الخاصة بالخدمة... وكذلك مما يسمعه الإنسان فى القداسات من فصول الكتاب ومن العظات...

وهذه المعرفة تدخل الإنسان فى تدريبات روحية عملية. وإن ترك الخدمة، ربما يترك كل هذا...

* * *

بل قد يأخذ الإنسان ألواناً أخرى من المعرفة.

فيعرف مشاكل الناس، ويعرف تفاصيل كثيرة عن النفس البشرية وما يجول فيها من مشاعر. ويعرف حروب الشياطين وحيلهم.

ويعرف أيضاً الحلول العملية لكل هذا، إن كانت خدمته تتطرق أيضاً إلى معالجة ما يتعرض له الناس من مشاكل داخلية وخارجية.

فإن لم يكن يعرف، فعلى الأقل سيرى كيف يتدخل المرشدون الروحيون أو الآباء فى هذه المشاكل، وكيف يحلونها. وفى كل ذلك تزداد خبراته فى الحياة.

خدمة غير ظاهرة

هناك أنواع من الناس لم يذكر لنا الكتاب خدمتهم أو تفاصيلها، إنما كانوا يخدمون الخدام، أو يقدمون الإمكانات للخدمة.

نسوة كثيرات كن يتبعن السيد المسيح «ويخدمنه من أموالهن» (لو٨: ٣). وفى بداية الكنيسة الأولى تركت مريم أم مرقس الرسول بيتها ليكون أول كنيسة يجتمع فيها المؤمنون ويصلون. كذلك ذكر لنا القديس بولس الرسول عن اكيلا وبريسكلا «والكنيسة التى فى بيتهما» (رو١٦: ٥). وأيضاً الكنيسة التى كانت فى بيت نمفاس (كو٤: ١٥). وشرح لنا التاريخ الخدمات العديدة التى كان يقوم بها المعلم ابراهيم الجوهرى وأخوه المعلم جرجس للكنائس والأديرة...

ربما أناس لا يخدمون القرى ، لكنهم يتبرعون بعربة تنقل الخدام إلى هذه القرى .

أو يدبرون المكان ، أو يعدون المكان للخدمة . أو أن يشتروا الأناجيل والبشائر والأجابى ، والصور والجوائز ، وما يوزعه الكاهن من صلبان وأيقونات . أو يهتمون بالعمل الإدارى للاجتماعات . كأن يقومون بكتابة أسماء الحاضرين ، أو يعدون كشوف الغائبين لافتقادهم ، وما إلى ذلك من الخدمات التى تبدو بسطة ولكنها لازمة ونافعة .

* * *

على الأقل هناك من يقومون بخدمة الصلاة من أجل الاجتماعات ونجاحها ، والمشاكل وحلها .

وقد تكون لصلواتهم استجابة أكثر نفعاً من خدمة الكلمة ، وتقتدر كثيراً فى فعلها ، وتكون هى الخدمة المخفية التى تقوم على أساس الخدمة الظاهرة . المهم يا أخى أن تخدم ...

شروط الخدمة الناجحة

هلكوا فى الخدمة :

ليست كل خدمة واسطة روحية ، فهناك من هلكوا وهم فى محيط الخدمة ، أو سقطوا وتعبوا ...

مثال ذلك الإبن الكبير الذى لم يفرح برجوع أخيه الضال ، ورفض أن يدخل البيت ولما خرج إليه أبوه يتوسل إليه ، قال لأبيه « ها أنا أخدمك سنين هذا عددها ، وقط لم أتجاوز وصيتك . ولم تعطنى قط جدياً لأفرح مع أصدقائى ... »(لو ١٥ : ٢٨-٣٠) .

كان فى الخدمة سنين هذا عددها ، ومع ذلك كانت مشيئته غير مشيئة الآب ، ولم يكن قلبه صافياً من جهة أخيه .

مثال آخر هو بعض ملائكة الكنائس السبع :

على الرغم من أنهم كانوا رعاة للكنائس ، إلا أن واحداً منهم قال له الرب « إن

لك إسماً أنك حى وأنت ميت » (رؤ٣: ١) . كما قال لآخر « لأنك فاتر ، ولست حاراً ولا بارداً ، أنا مزمع أن أتقيأك من فمى » (رؤ٣: ١٦) . وقال لثالث : « إنك تركت محبتك الأولى . فاذكر من أين سقطت وتب » (رؤ٢: ٤، ٥) . وذكر الرب لكل هؤلاء أسباباً جعلتهم - وهم فى قمة الخدمة - فى حاجة إلى توبة ...

وآخرون من مساعدى بولس الرسول هلكوا تماماً .

أولئك الذين قال عنهم « لأن كثيرين ممن كنت أذكرهم لكم مراراً ، والآن أذكرهم أيضاً باكياً وهم أعداء صليب المسيح ، الذين نهايتهم الهلاك ... ومجدهم فى خزيهم ، الذين يفتكرون فى الأرضيات » (فى ٣: ١٨، ١٩) . ولعل من أمثلة هؤلاء أيضاً ديماس ، الذى ذكره الرسول فى إحدى المرات قبل القديس لوقا (فل ٢٤) ، يعود الرسول فيقول عنه « ديماس قد تركنى ، إذ أحب العالم الحاضر » (٢تى ٤: ١٠) .

كل هؤلاء ضاعوا ، وغيرهم سقط وتاب .

ولم تكن الخدمة هى سبب ضياعهم . ولكنهم نسوا روحياتهم فى مجال الخدمة . فسقطوا وبعضهم هلكوا ...

إذن يمكن أن تكون الخدمة واسطة روحية . ويمكن أن يسقط الإنسان فيها أو يهلك ، إن لم يسلك بطريقة روحية . فما هى إذن شروط الخدمة الروحية ؟

الحب :

تحب الله ، وتحب الملكوت ، وتحب الناس .

والمحبة تولد محبة . أما إذا كنت تخدم وفى نفسك ضيق وتبرم ، وإن كنت تعطى مضطراً وفى النفس تذمر ، فهل تظن أنك تستفيد روحياً ؟!

يحدث أحياناً أن بعض الناس يبدأون الخدمة وليس لهم الهدف الروحى السليم . ولكنهم حينما يرون احتياجات المخدومين ، و يلاحظون آلامهم وضيقاتهم ، يتحرك فى قلوبهم العطف عليهم والاشفاق ، فيخدمونهم بقلب محب . وتكون هذه المحبة نتيجة للخدمة وليس سبباً . وتبدأ المحبة تمتزج بخدمتهم ، وتعلمهم كيف يخدمون بعاطفة .

أشخاص يخدمون الفقراء . ثم يجدون أن طلاب الحاجات يلجأون فى طلبهم إلى الكذب والاحتيال ، أو يمتزج طلبهم بالحاح متعب ، أو بضجيج وعلو صوت ... فيتبرمون

بهم ، وقد يطردونهم و يقسون عليهم ...

أما القلب المحب ، فإنه يحتمل متاعب هؤلاء ...

لأن المحبة تحتمل كل شيء (١كو ١٣ : ٧) .

فإن خدمت ، ووجدت أن أعصابك بدأت تتعب فى الخدمة ، وأنك بدأت تحتد وتشتد ، على الفقير إذا كذب واحتال ، أو على التلميذ إذا عاند وشاغب ، أو على الذين يفقدون النظام فى الاجتماعات ... فاعرف أن فى داخلك شيئاً يحتاج إلى علاج ، وأن الخدمة قد كشفت فى نفسك عيباً كيما تصلحه ...

* * *

لا تقل إن العيب فى الخدمة ، إنما فيك ...

قل لنفسك : ينبغى أن أوسّع صدرى ، وأن أطيل بالى ، وأن أحتمل غيرى مهما أخطأ . وأن أضرب لهم باحتمالى مثلاً يقتدون به ..

أو أن تقول : لقد كشفت لى الخدمة أن هؤلاء الفقراء ، ليسوا فقط فى حاجة إلى مال يسدون به احتياجاتهم ، إنما هم أيضاً فى حاجة إلى عمل روحى يقودهم إلى التوبة ومعرفة الله وإلى السلوك السليم ... وهكذا تبدأ فى عمل روحى معهم ، حتى يستفيدوا من الخدمة مادياً وروحياً ...

ونفس الوضع مع التلاميذ المشاغبين ، ومع الذين لا يحفظون النظام فى الاجتماعات ...

إذن شروط الخدمة الروحية أن تمتزج بالاحتمال .

الاحتمال :

كل خدمة فيها متاعب . وكل خادم - كما قال الرسول - سيأخذ أجرته بسبب تعبه (١كو٣: ٨) . وآباؤنا الرسل تعبوا كثيراً فى خدمتهم . يقول القديس بولس الرسول عن خدمته هو وزملائه فى الخدمة « بل فى كل شيء نظهر أنفسنا كخدام الله فى صبر كثير ، فى شدائد فى ضرورات ، فى ضيقات فى ضربات فى سجون ، فى اضطرابات فى أتعاب ، فى أسهار فى أصوام ... بمجد وهوان ، بصيت حسن وصيت ردىء ... » (٢كو٦ : ٤- ٨) .

و يقول أيضاً « مكتئبين فى كل شيء ، لكن غير متضايقين . متحيرين لكن غير

يائسين . مضطهدين لكن غير متروكين ، مطروحين لكن غير هالكين» (٢كو٤ : ٨، ٩) . و يشرح الرسول أمثلة من المتاعب الى احتملها فى (٢كو١١ : ٢٣- ٢٩) . يكفى قوله « فى الأتعاب أكثر» ولكنه إحتمل كل هذا، واكتسب أكاليل من الاحتمال .

وكما نذكر بولس الرسول نذكر كثيرين من شخصيات الكتاب .

مثال ذلك العذابات التى تحملها القديس يوحنا الإنجيلى مع نفيه إلى جزيرة بطمس ، حيث كتب سفر الرؤيا وفى أوله « أنا يوحنا أخوكم وشريككم فى الضيقة » (رؤ١ : ٦) . كذلك دانيال النبى وكيف ألقوه فى جب الأسود » (دا٦) والثلاثة فتية والقاؤهم فى أتون النار (دا٣) ولا ننسى قول السيد المسيح لتلاميذه « ها أنا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب » (مت ١٠ : ١٦) « سيسلمونكم إلى مجالس وفى مجامعهم يجلدونكم . وتساقون أمام ملوك وولاة من أجلى ... وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى » (مت ١٠ : ١٧ ، ٢٢) . والرسل احتملوا كل هذا وصبروا .

* * *

والصمود يمنح الخادم قوة روحية من الرب .

يمنحه قوة فى الرجاء فلا ييأس . كما يقويه أيضاً فى الرجاء ، مؤمناً أن الرب لابد سيتدخل و يصلح كل شيء . وهكذا ينال فضيلة أخرى هى انتظار الرب . كما قال المرتل فى المزمور « إنتظر الرب . تقوّ وليتشدد قلبك وانتظر الرب » (مز٢٧: ١٤) . وهكذا قال فى خبراته الروحية أيضاً « انتظرت نفسى الرب من محرس الصبح حتى الليل » (مز١٣٠) . نقطة أخرى تميز الخدمة وتسبب نجاحها وهى :

إهتم أن تكون خدمتك روحية وعميقة .

روحانية الخدمة :

كثير من الناس خدمتهم مجرد نشاط يستهلك كل طاقاتهم : هم عبارة عن شعلة متحركة من الانتاج والعمل ، ولكن بلا روح . مثل هذه الخدمة لا تفيدك روحياً ، لأن الله لا نصيب له فيها ... بل كثيراً ما يحدث أن هذا النشاط الحركى المتزايد، يعطل فى مشغولياته العمل الروحى .

فتجد مثلاً أميناً لمدارس الأحد ، له طاقاته الواسعة من جهة تطبيق المناهج ، وكراسات التحضير، واجتماعات الخدام ، واجتماعات الشباب ، والمكتبة والنادى ،

والنشاط الصيفى... وتسأله عن نفسه وروحياته، فلا يجد لها وقتاً. فتفتر حياته، وبالتالى تفتر أيضاً خدمته، وتجدها مجموعة ضخمة من التنظيمات، بلا روح. لا تفيد حياته ولا تفيد الآخرين...

* * *

وتتحول الخدمة إلى أمور إدارية بحته.

وربما يحدث هذا الأمر أيضاً بالنسبة إلى الخدمة الاجتماعية، وإلى خدمة الملاجىء، والمسنين، والمغتربين، ومجالس الكنائس.... وفى هذا العمل الإدارى قد تكثر المناقشات والمجادلات والضجيج والصياح. وربما المنافسات أيضاً والحزبيات. وفى هذا كله تضيع روح الخادم. لأن الخدمة لم تتسم بالطابع الروحى. ولم يكن الله شريكاً فيها. ولم تدخل فيها الصلاة ولا التنفيذ العملى للوصية.

حاول إذن فى كل خدمة تخدمها، أن تبعد عن الروتين والشكليات، وأن تدخل الله فيها، ويكون لها الطابع الروحى... حتى فى الأعمال الإدارية فلتكن لها «روحانية الإدارة». وهذه عبارة تحتاج منا إلى موضوع خاص يشرح تفاصيلها...

فرق كبير بين رجل الله حينما يدير، وأهل العالم فى إدارتهم.

* * *

إذن فى خدمتك، ابعد عن الأخطاء الروحية.

إبعد عن أسلوب الأمر والنهى، وليكن لك روح الاتضاع وأدب التخاطب مع الصغير كما مع الكبير. ومهما أوتيت من سلطة فى الخدمة، لا تكلم الناس من فوق، ولا تتعالَ على أحد، ولا تدخل إلى قلبك روح السيطرة والتسلط. وتذكر قول الرب «أكبركم يكون خادماً لكم. لأن من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع» (مت ٢٣: ١١). وأيضاً «إن ابن الإنسان لم يأتِ لِيُخدم، بل ليخدم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين» (مت ٢٠: ٢٨).

لذلك لا تجعل الخدمة تفقدك وداعتك وتواضعك.

إن وجدت صوتك بدأ يعلو ويحتد فى الخدمة، لابد أن تحترس وتراجع نفسك. وإن وجدت أنك بدأت تتحدث عن نفسك وما تفعله من أمور عظيمة، إحترس أيضاً لئلا شيطان المجد الباطل يحصد كل ما زرعته فى الخدمة. وإن نظرت باحتقار إلى غيرك، مقارناً بين مستواه ومستواك، فاعرف أن الكبرياء قد دخلت إلى نفسك... ضع أمامك

إذن قول الرسول «لاحظ نفسك والتعليم وداوم على ذلك. فإنك إن فعلت هذا تخلص نفسك والذين يسمعونك أيضاً» (١تى ٤: ١٦). قل لنفسك باستمرار: أنا مادخلت إلى الخدمة لكى أقع فى خطايا جديدة، إنما لكى أنمو روحياً!

* * *

فى الخدمة أيضاً إحترس من الذات الـ Ego.

لا تجعل الخدمة وسيلة لكى ترتفع بها أو تبنى كرامتك. فأنت فيها مجرد خادم للرب، تقول عنه كما قال القديس يوحنا المعمدان «ينبغى أن ذاك يزيد، وأنى أنا أنقص» (يو٣: ٣٠) أو كما قيل فى المزمور «ليس لنا يارب ليس لنا. لكن لاسمك القدوس اعطِ مجداً» (مز١١٥: ١).

احترس من انذار الرب للرعاة الذين يرعون أنفسهم (حز ٣٤: ٨ - ١٠). وليكن هدفك من الخدمة هو ملكوت الله، وخلاص الناس... وليس نفسك وكرامتك.

الخدمة المفيدة روحياً، هى التى تنسى فيها كلمة أنا.

وكل مشتقات كلمة أنا وتركيباتها. والخادم الذى ينسى كلمة أنا، ينسى أيضاً راحته ووقته. ولا يسعى إلى مديح أو كرامة، ولا يحزن لعدم وجودهما. وأيضاً يفضل غيره على نفسه فى كل أمور الخدمة كما قال الرسول «مقدمين بعضكم بعضاً فى الكرامة» (رو١٢: ١٠). إن فعل الخادم هكذا، يكون محبوباً من الكل، وفى نفس الوقت لا يفقد تواضعه فى الخدمة...

* * *

والخدمة المفيدة روحياً، هى البعيدة عن السياسات.

كثيرون دخلوا فى الخدمة. وبعد حين بدأوا يهملون أنفسهم، وينشغلون بتدبير الخدمة، ثم يصطدمون بالكنيسة، وكاهن الكنيسة، ومجلس الكنيسة، والعاملين فى الكنيسة. ويتحدثون عن تصرفات هؤلاء وأولئك، وما يفعلونه من خطأ ومن صواب، ويركزون على الخطأ! وتصبح أخطاء الآخرين، أو ما يظنونها أخطاء، هى موضع حديثهم الدائم وإدانتهم المستمرة. بل يتحولون من الإدانة إلى التشهير، ويفسدون عقول غيرهم.

والعجب أنهم يغطون كل ما يقعون فيه من إدانة وتشهير، بتبرير هو الدفاع عن الحق!!

وباسم الدفاع عن الحق يقعون فى خطايا لا تحصى. ويدخلون فى خصومات وانقسامات. ولكى ينتصروا فى حروبهم، يحاولون أن يكسبوا أكبر عدد ممكن ينضم إليهم فى الإدانة والتشهير. ويتعكر جو الخدمة، ويفقد روحانيته، ويفقد روح المحبة، ويفقد الوداعة والبساطة!! وهل كل هذا من أجل الدفاع عن الحق ؟! دون أن يسأل أحد نفسه: هل من حقى أن أفعل كل هذا؟ ودون أن يسأل نفسه: هل، هذا هو الأسلوب الروحى الذى أدافع به عن الحق ؟! ما أكثر الذين ضاعوا وأضاعوا غيرهم، وهم فى (الخدمة)!!

* * *

لكى تنتفع روحياً، إهتم فى خدمتك بالعمل الإيجابى وليس بالسلبيات.

دع أمامك المثل الذى يقول «بدلاً من أن تلعنوا الظلام، أضيئوا شمعة». كن قدوة للكل، وثق أن هذه فى حد ذاتها رسالة وخدمة... واعرف أن العمل الإيجابى البناء هو الباقى على الدوام، ولا ينتقدك فيه أحد، ولا تخطىء فيه إلى أحد. أما الانشغال بالسلبيات، فإنه يتعب فكرك وروحك. وربما تصل به إلى أسلوب الهدم ويوقعك فى خطايا كثيرة.

* * *

أليس الأفضل لك أن لا تخدم، من أن تخدم بأسلوب يوقعك فى الخطية ؟!

وتصبح فيه عثرة لغيرك. وقد قال الرب «ويل لمن تأتى بواسطته العثرات» (لو١٧ : ١).

* * *

مكتبة كتب قداسة البابا شنوده الثالث

شخصيات

1 - آدم وحواء / قايين وهابيل
2 - موسى وفرعون .
3 - يونان .
4 - مارمرقس .
5 - الأنبا أنطونيوس .
6 - القمص ميخائيل إبراهيم .

من الميلاد الى القيامة

7 - كيف نبدأ عاماً جديداً .
8 - تأملات في الميلاد .
9 - من وحي الميلاد .
10 - روحانية الصوم .
11 - تسبحة البصخة .
12 - أسبوع الآلام .
13 - خميس العهد .
14 - الجمعة الكبيرة .
15 - كلمات المسيح على الصليب .
16 - تأملات في القيامة .

صلوات

17 - صلاة الشكر والمزمور الخمسين
18 - مزامير الغروب .
19 - يستجيب لك الرب .
20 - يارب لماذا .
21 - سبحوا الرب .

كتب روحية

22 - إنطلاق الروح .
23 - حياة الشكر .
24 - حياة الإيمان .
25 - معالم الطريق الروحي .
26 - الوجود مع الله .
27 - الله وكفى .
28 - الهدوء .
29 - مقالات روحية (الجمهورية)
30 - الدموع .
31 - العظة على الجبل .
32 - خبرات روحية ج 1 .
33 - الرجاء .
34 - الروح القدس .
35 - الإنسان الروحي .
36 - سلسلة الوسائط الروحية .

الحروب الروحية

37 - حروب الشياطين .
38 - الحروب الروحية .
39 - الغضب .
40 - الإدانة .

فهرست الكتاب

صفحة



في هذا الكتاب



بسم الآب والابن والروح القدس
الإله الواحد آمين

هذا الكتاب الذى بين يديك يشمل ١١ باباً عن ١١ من الوسائط الروحية هى :

١ ـ الصلاة .
٢ ـ الكتاب المقدس .
٣ ـ قراءة سير القديسين .
٤ ـ التأمل .
٥ ـ التداريب الروحية .
٦ ـ محاسبة النفس .
٧ ـ الاعتراف .
٨ ـ التناول .
٩ ـ الصوم .
١٠ ـ العطاء (شركة الله فى أموالنا)
١١ ـ الخدمة وشروطها الروحية .

وقد راعينا التركيز بقدر الإمكان ، لأن كل باب من هذه الأبواب يحتاج إلى كتاب خاص .

إنه يمثل النواحى الإيجابية فى حياتك الروحية ، أما حروب الشياطين والحروب الروحية فتمثل محاربة السلبيات .

البابا شنوده الثالث



